نور الدين النبهاني

مجموعة قصصية

يقتات من بقايا الحب

نور الدين النبهاني

اسم الكتاب: يقتات من بقايا الحب

اسم الكاتب: نور الدين النبهاني

نوع العمل: مجموعة قصصية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-213-230214

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

يقتات من بقايا الحب

مجموعة قصصية

نور الدين النبهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إِلَى الَّذِينَ عَانَوا مِثْلَنَا، وَعَاشُوا بَيْنَنَا، وَرَحَلُوا عَنَّا...

عَاشُـوا عَلَـى الْهَـامِشِ فِي صَـمْتٍ، وَانْتَقَلُـوا إِلَى الْهَـامِشِ الْآخَـرِ فِي صَمْتٍ...

كَـانُوا مُجَـرَّدَ أَرْقَـامٍ وَأَسْمَـاءٍ فِي الْبِطَاقَـةِ الْوَطَنِيَّـةِ، وَأَصْبَحُوا مُجَـرَّدَ أَرْقَـامٍ وَأَسْمَاءٍ عَلَى شَوَاهِدِ قُبُورِهِمْ!

فَقَطْ أَرْقَامٌ وَأَسْمَاءٌ تُؤَكِّدُ مُرُورَهُمْ مِنْ هُنَا!

الْأُمُومَةُ فِي الْخَفَاءِ

اعتاد أن يطرق باب بيته بِرِجْلِه، لا بيدِه، وهو في حالة سكر طافح، بعد منتصف الليل بساعة أو بساعتين، وينهال عليها بالسب والشتم فور أن تفتح له الباب.

واعتادت هي أن تجهز له طعام العشاء، ثم تعود إلى فراشها لمواصلة النوم، لكن هذه الليلة أصَرّ أن تجلس بجانبه، وأنْ تُطعمه بيدها، لا لأنه يريد أن يخلق جوًّا رومانسيًّا، ولكن يريد أن يفرغ جَعبته من الهم والغم اللذيْن أثقلا كاهله.. طاوعَتْه بعد مُمانعة؛ فهو الوحيد الذي اهتم بها كامرأة، وأَشعرها بأنوثتها، وأسمعها كلامًا حلوًا لم تسمعه منذ أن استقدمها والدها من البادية، ورماها في أحد بيوت الأثرياء خادمةً، وهي لم تتجاوز بعدُ عشر سنين، وظلت خادمة، وآلة، ومربية، ومرحاضًا يبتلعُ كل ما يُقْذَف فيها، إلى أن ظهر «علال» في حياتها؛ لذلك لا تعصى له أمرًا.

جلست بجانبه، واعتدلت في جلستها، وحاولت أن تخلق جوًّا مرحًا ظنًّا منها أنَّ ليلةً حميمية تنتظرها.. أدرك «علال» مُبتغاها، ولم يبتسمْ كما تَعَوَّدَتْ دائمًا، بل أطلق آهاتٍ وزفراتٍ.. لم يَدُمْ صمتُه طويلًا، وبغير أي مقدماتٍ انطلق يحكي.

كانت امرأة جميلة، وكان زوجها بائعًا مُتجولًا في الأسواق.. ذات ليلة مقمرة من أيام الصيف، عاد على غير عادته، ليُفاجأ بزوجته وعشيقها في فراشِه، فراشِ الزوجية.. دخل في صراع مع العشيق.. انهزم الزوج وقُتِلَ، وحُكم على الزوجة بعشرين عامًا، وعلى العاشق بالإعدام.. وبعد المحاكمة بأسبوع، اكتشفت الزوجة أنها حامل.. توقف عن الحكي، والتفَت إلى زوجته، وسألها: أتدرين من تكون هذه الزوجة؟ هذه المرأة اسمها «فاطنة»، إنها أمّي.

عِشْتُ في أحشائها، وكلانا سجين، وحين أنجبتني لم يكن أحد يدري: هل أنا ابْنُ القاتل أم ابْنُ القتيل! ومكثْتُ معها في السجن خمس سنين بلياليها.

خمس سنين في حجرة، كانت هي كل عالمي.. جُدرانُها سميكة وعالية، وأجْواؤها كئيبة وصامتة، والوجوه فيها حزينة وشاحبة، يختلط فيها الليل بالنهار، والفرح بالحزن، والضحك بالبكاء، ولا تسمع إلا رنين المفاتيح

لأبواب تُفْتَح وأخرى تُغْلَق، وأوامر لنساء بأزياء متشابهة تُطل علينا مع طلوع الشمس ومع غروبها.

ومنذ خروجي من السجن لم أزرْها، ومنذ خروجها من السجن لم تزرْني، وطوال هذه السنين لم نلتق، ولم يبحثْ أحدُنا عن الآخر.. واليوم بلغني خبر وفاتها في الحج، وأنا في الحانة، من طرف رجل يَدَّعِي أنه خالي.. لقد صَرفْتُ آخر درهم في جيبي على الخمرِ، كي أنسى كل مواجعي، لكن بلا فائدة.. قاطعَتْهُ في دهشة وحيرة: قصتك تشبه قصةَ أمّي «فاطنة» صاحبة هذا البيت، هي الأخرى توفت في الحج، وصل خبرها اليوم، كانت هي الأخرى في السجن، وهناك تعلمت صنعة يدوية، وحين خرجَتْ باعَتْ كل ما تملكه في قريتِها، واشترتْ لها بيتًا، وأسّست لها مشروعًا بدعم من مؤسسة سجنية.

انتظرْ، انتظرْ، آه، آه، تذكرتُ.. أمّي «فاطنة» هي التي تعرفتْ عليّ في الحديقة العمومية، وصاحَبَتْنِي، وهي التي شجعتني على الزواج مِنْك حين حكيتُ لها عَنْك، وهي التي عرضتْ علينا السكن في بيتها، وهي التي كانت تتنازل لي عن ثمن الكراء أحيانًا، وهي التي تمدني بالمؤونة كلما تعسَّرتْ أمورنا، وهي التي كانت تأخذني إلى طبيبة النساء والتوليد قصد الإنجاب، حين طال زواجنا بلا أولاد، وهي التي تدفع كل المصاريفِ،

مصاريفِ الفحص وثمن الدواء.. يا الله لم يكن ذلك إحسانًا منها إذن.. آه.. الآنَ أدركْتُ لماذا كانت تخفي وَجْهَها كلما قابَلَتْكَ! لم يكنْ حياءً ولا استحياءً، ولكن... قاطعها بصوت خافت: حتى وإنْ بَدَتْ، كيف لي أن أعرفَها، وأنا لم أرها منذ صغري، منذ كان عمري بِضْع سنين؟! حتى ملامح وجهها لم تَعُدْ واضحة في ذاكرتي، لكنَّ الطفلَ السّجين ظلّ وما زال يصرخ بداخلي، يصرخ كل ليلة، يريد حنانًا، يريد أُمًّا صالحة، يريد حياة أفضل.. تمنيت لو قتلتُ هذا الطفل الذي بداخلي، وتخلصت من مُعاناتي.

ضحكت بهستيرية قائلة: لا.. لا.. لا.. لا تقل لي إنّها أمّك، أمّك «فاطنة»! لا تدخلْني في دوامة.. أرجوك، لا تُدخلني في متاهة.. هذا لغز.. لا.. لا.. قل لي فقط: تشابه في الأحداث، تشابه في الأسماء.. أمّا هو، فظلَّ صامتًا ساكنًا جامدًا في مكانه بُرهة، ثم صرخ بأعلى صوتِهِ آه.. آه.. آه... تَحَوَّل بَيْتُك سِجنًا، وسِجنُك بيتًا، وكلانا يسكن فيه، دون أنْ أعلم، يا «فاطنة»...

آه.. آه... تحوّل بيتك سجنًا وأنا السجين، وتحول سجنُك بيتًا وأنتِ السّجّان.. آه يا «فاطنة»، يا أمّي...

رِسَالَةٌ صَوْتِيَّةٌ

بقِسْم المُداومة لمركز الدرك الملكي، جاءت إخبارية تُفيد انتحار فتاة في محيط منطقتهم الجبلية النائية.

وهو يَمْسَح بِعَيْنَيْهِ مسرح الجريمة، لاحظ الدركي تسجيلًا لكاسيت مَلْفوف ومَوْضوع بِعناية قُبالة الجثة المعلقة.

بعْد عَناءِ البحْثِ عنْ آلة تَسْجيل، اشتغل التسجيلُ، وجلس يَسْتمع إليه، ثم ترجمه من الأمازيغية إلى العربية، وهو يسجل في المحْضر الرسمي.

***

أمِّي.. تركْتُ لك هذا التسجيل، لأني لا أعرف القراءة والكتابة، وأنت كذلك، ولا أحد سَيَهْتم لرحيلي غيرك..

أمّي.. تحيَّرتُ وتحيَّر أمري، ونفَد صبري.. كُنْتُ أظنُّ أنّ الزواجَ سَيُنقذني منْ براثن الفقر والإهمال، فإذا بي أتحول إلى خادمة مع سبق

الإصرار، بعد عُرْسي، دخلت إلى المطبخ وآثار الحناء في يدي طَرِية، وما زِلْت أقضي فيه أغلب أوقاتي، مع سَماع كل أنواع السَب مِنْ زَوْجي وحماتي، حتى حُقوقي الزَّوْجية، لا آخذها إلا لمامًا، وأحيانًا أشْحتها منه شحْتًا بعد أن أدوس على كرامتي.

أمّي.. ما بال القدر يُعاندني، مُنْذ وِلادتي، بل حتى قبل ولادتي، يموت أبي ولم يمض على زواجك منه سوى سنة، ويتركك حاملًا؛ لذلك لم أر أبي، لم أسمعْ صوته، لم ألمسْ حنانه، وبعد ثلاث سنوات تتزوجين، وأنتقل للعيش مع جدَّتي، حين بلغْتُ سِت سنين، لم ألتحقْ بالمدرسة، ولم يفكرْ أحد في الأمر، وأصبحت خادمة ومُمَرضة ومُساعدة لجدتي.

في عالمها، عانيت الوَحْدة والمَسْكنة والإشفاق التي أراها في عُيون الزائرين ضُيوف جدتي.

أمّي، في مُراهقتي لم يكنْ لي فارس أحلام، فالأحلام لا تعرف طريقها إلى عالمي، ومن يعش مثلي، لا يحق له العِشق، ولا نصيب له في الحب، أقْصى حُلمه أن يعيشَ مستورًا، وله سقف يأويه.. بعد وفاة جدتي لم يَعُدْ لي سقفٌ يأويني، فانتقلت كخادمة إلى بيت عمّي، بعد أن رفض زَوْجُكِ استقبالي في بيته.. كنت في الليل وتحت جنح الظلام، أكْرَهُ نفسي حين

يتسلل ابْنُ عَمّي إلى فراشي، ويعبث بجسدي كما يحلو له.. فُقْداني لبكارتي في سِنّ مُبكرة عَمَّقَ مِن جراحي.. لا أحد اهتم لِمُعاناتي.

أمّي.. خلال هذا الأسبوع ساقوني كشاة إلى الطبيب، زوجي وأمه وأخته، وبعد الفحص وإجراء التحاليل، تبيّن أَنِّي عاقر، أرض بور كما أصبحت تُسَمّيني حَماتي.. اه يا أمّي، حين كنت أرى الفتيات في سِنّي ينْعَمْنَ بالسعادة بيْن أطفالهن، وفي حِضْن أسرِهن، أشعر بِوَخْزِ الإبر في قلبي، دمعة يتيمة تتحجر في عَيْنَيَّ.. كنت يا أمّي أتأكد أني ضَيْفة ثقيلة غير مرغوب فيها بدنياكم.. واليوم يا أمّي، ذهبوا لِخِطْبة عروس جديدة له، ستُصبح لي ضُرَّة، وسأصبح لها خادمة، بعد ذهابهم وجدتُ نفسي في البيت وحيدَةً.. اتخذتُ قرارًا؛ قبل أن يسوقني غدًا خَلْفَه كبقرةٍ إلى القاضي، لأقرَّ بالموافقة والسماح له بالزواج، فهو لن يتخلى عن خادمة تعمل في بيتهم مجّانًا!

أمّي، لأول مرة اتَّخِذ قرارًا، مِنْ تِلْقاءِ نفسي دون إذْن أو أمْر مِنْ أحد، لعله قرارٌ غير صائب، لكن القدر لم يترك لي خيارًا آخرَ!

وأنت تستمعين إلى هذا التسجيل ادعي لي بالرحمة.. الرحمة التي لم أعِشْها في حياتي، ولم أتَذَوّقْ طَعْمَها.

وختَم الدَّرَكِيّ مَحْضره بتصريح قطعي.. «إزّة» لم تُقْتَلْ، «إزّة» انتحرتْ بمحض إرادتها، لعلها كانت تعاني من اضطرابات نفسية.

عريس من أوروبا

كان أصْغر إخْوته، وهو المُدلل فيهم رغم الفقر واليُتْم، لم يُتَمِّم دراسَته، ولم يَكْتَمِلْ نُضْجُه. تقلّبَ في عِدة حِرف، ولم يستقر مزاجُه على صنعة واحدة تُطْعمه من جوع وتسْتر عوْرته. دخل في قِصص حُب غير متكافئة، انتهى أغلبها في مخافر الشرطة، فقرر ذات صباح أنْ يعتكفَ في البيت، وأقسم ألّا يخرجَ أو يشتغلَ إلا إذا ساعدوه في الهجرة إلى أوربا!

هاجر كبقية الشباب المهاجر بعد أنْ باعتْ أمه كل ما تملك مِنْ حلِيّ، واقترض إخْوتُه باقي المبلغ.. كان الوسيط صادقًا معهم هذه المرة، وتَمَّ تصْديره مُتَخَفِّيًا مع البضائع إلى أوربا في إحدى الشاحنات.

ظل إحساسُه بالنقص والجهل يلازمانه في غُربته، وهو يتسكع في دروبها، ويتطفَّل على موائدها.. امتهن كل الأعمال الهامشية والوضيعة، منها تنظيف البيوت والانتقال بينها، لكن في سرية تامة، خوفًا من رجال أمن الهجرة. طال وَضْعُه الهَش حتى ملّ الكرّ والفرّ، والاختفاء

والاختباء؛ فقرر الزواج من امرأة أوروبية يشتغل في بيتها بين الفينة والأخرى.. كانت مجرد بقايا امرأة، لم تعُدْ مطلوبة في سوق الرجال، لكنها كانت تملك المقر والمستقر، البيت وأوراق الإقامة.

تزوجها وعاش ضيفًا في بيتِها بَدَلَ زوجٍ، وخادمًا لديها بدل شريكٍ، كُل فتوته لم تشفعْ له، وكُل شبابه لم يُؤهلْهُ لتكون طَوْع أمرِه أو رَهْن إشارته كما كان يتوقع. حتى اسْمه حرّفته؛ فكانت تناديه «عبدو» بدل «عبد الإله»، لا لصعوبة في النطق، بل لإشعاره بِالدُّونِيَّةِ!

وكان كلما حَنَّ إلى طعام أمّه أو اشتاق إلى الكُسكس أو إلى أي أكلة مغربية أخرى، تَطَفَّل على أصدقائه المغاربة المتزوجين بالمغربيات هناك، لعل إحداهن تتكرم عليه بِوَجْبة مِما يشْتهي، وذاك ما كان يحصل غالبًا، حتّى في رمضان يتناوب على تناول الفطور عندهم إلى أن منعتْهُ زوجتُهُ، فرغْم أنها كانت تُحْفة تراثية جميلة، فإنها كانت صارمة في قراراتها؛ فهي من أم ألمانية وأب ألبانيّ الأصل، ربّياها تربية عسكرية، شِعارها: لا مكان للعواطف في العلاقات، مُستقوية عليه بتقاعدها المُريح من عملها الوظيفي، وممتلكاتها العديدة لذلك لا يستطيعُ أنْ يعصى لها أمرًا!

وكلما زار المغرب بِمُفْرده أو معها، وصادفَتْ زيارتُه حفْلَ زفاف، حضرَه بِإصْرار، واعتاد –قبل استفراد العريس بعروسه– أن يَنْزَوِيَ في

رُكْنٍ قَصِي ويشرب النبيذ من القارورة مباشرة حتى الثمالة، ثم ينخرط في نَوْبَة بُكاء.. كان إحساسه بالنقص والقهر يزداد مع كل مناسبة، ويتضاعف في كل سنة، حتى ماتت زوجته.. لم يرِثْ منها إلا السيارة التي كانت باسمه، والبيت الذي اشتغل فيه خادمًا، ورصيدًا ماليًّا من سُيولة وأسْهمًا، لا يُعدَّانِ ثروة كبيرة، إضافةً إلى الجِنْسية التي حَصل عليها، أما باقي مُمتلكاتها، فقد تبرَّعَتْ بها في وَصِيّتها لجمعية خيرية.

بعد وفاتها، غيّر نمط عيشه، واسْتثمر رصيده المالي في مظْهره، وأصبح كريمًا مع نفسه؛ سيارة فاخرة، وسلاسل ذهبية في العنق واليد اليمنى، وساعة باهظة الثمن في اليد الأخرى، وملابس أنيقة من محالّ مشهورة عالميًّا، وارْتِياد المطاعم الراقية، وأصبح في كل سنة يزور المغرب، يزوره بغير الوجه الذي ذهب به، وفي كل زيارة يتقدم إلى خطبة فتاة، ويقضي معها شهرًا؛ إما زواجًا دون توثيق، أو شهر خِطبة كله عسل، ثم يختفي، ليظهر في السنة الأخرى، في مدينة أخرى، ليخطب فتاة أخرى، ويقضي معها شهرًا كاملًا، إما زواجًا بالفاتحة، أو وعدًا بالزواج مع إقامة علاقة ومعاشرة ثم يختفي، دون أن يتركَ له أثرًا.

وأصبحت له في كل مدينة حكاية، ومع كل فصل صيف رواية، إلى أن تَصَدَّرَتْ ذات صباح أغلب الجرائد صُوَرُهُ، إثر وفاته في حادِث سيْرٍ

مُـروعٍ بسـيارته، فتبـين أنَّ لـه ضـحايا، وأن أغلـب ضـحاياه فتيـات مُراهقـات، وبعضـهن قاصـرات مـن أسَـر فقـيرة أو معـوزة، توافـدْنَ علـى المستشفى من كل المدن، واجتمعْنَ أمام باب قاعة التشريح، في انتظار تَسلم الجثة، بحْثًا عن حقوق لهن، ابتلعتْها المظاهِرُ وضاعتْ!

المَلّالي يا المَلّالي

كانت تنادي بأعلى صوتها «البغرير، البغرير، دارها الملالي»... لا أحد كان يفهم ما علاقة البغرير بالملالي! كل ما يعرفه الزبائن هو أن زوجها من «بني ملال»، وما لا يعرفونه هو أنه مهاجر بـ«فرنسا»، شاهد «زهيرة» بائعة البغرير في أحد الأعراس المغربية، فأُعجب بها وتقدم لخطبتها.. وافقوا عليه دون تردد، وفي ظرف أسبوع كانت «زهيرة» في القفص الذهبي، وخلال شهر جهزت كل أوراق السفر والإقامة بـ«فرنسا» والتحقت به.

ظلت تشتغل معه وتساعده ليلَ نهارَ مدة خمس سنوات، حتى أنجَبَت ابنها البكر، ثم ابنتها آخر العنقود، فانقلبت حياتهما رأسًا على عقب، واختلف القول مع الفعل بينهما؛ هي تقول: منذ أنجبتُ تغير الزوج وتبدل، وما عاد يطيق منها كلمة، حتى الفراش ما عاد يجمعهما!

وهو يقول: منذ أنجَبَتْ تغيَّرتْ وتبدَّلت، وأصبحت تحرمه من حقوقه الزوجية بدعوى أنها متعبة ومرهقة من كثرة الأشغال داخل البيت

وخارجه، لكن ما كان يغيظه أكثر أنّها لم تعد تستشيره في أمور حياتهما، ولا عادت تطيعه وتستجيب لطلباته، بل أكثر من هذا أصبحت تهدده بالشرطة وقانون الهجرة وحقوق المرأة!

حين انتهت عطلتهم الصيفية الأخيرة بالمغرب أواخر الثمانينيات، قرروا المبيت بأحد فنادق طنجة حتى يتمكنوا من ركوب الباخرة فجرًا، وعند منتصف النهار استيقظت مذعورة هي وأطفالها على طرقات باب الغرفة، طرقات متتابعة من طرف عمال الفندق، فتحت وهي تستفسرهم مُحْتجة، فأبلغوها أن مدة المبيت لليلة واحدة تنتهي عند منتصف النهار، وقد تجاوزته، كانت تحتاج إلى وقت لتستوعب ما يجري!

دخلت في حالة هيجان حين لم تجد أوراق الإقامة ولا جوازات السفر ولا النقود، ثم خرجت تبحث عن الزوج والسيارة، وحين لم تجد لهما أثرًا، أدركت أن النوم غدرها كما غدرها الزوج حين وضع لها منومًا في الشاي الذي كان آخر مشروب تناولته قبل النوم، وقد تبين لها ذلك حين استرجعت شريط الليلة الماضية.

أبْلغَت السلطات المحلية بالحادث، وبحجم الكارثة التي تعيشها، لكنهم طلبوا منها أن تتريث قليلًا وتنتظر أربعًا وعشرين ساعة، ليحق لها أن تبلغ عن اختفاء الزوج.

عادت في الحافلة رفقة أخيها الذي التحق بها، وهي منهكة ومتعبة ومرهقة؛ لا أكل، ولا شرب، ولا تركيز.. الصدمة شلت تفكيرها، وجعلتها أشبه بامرأة مجنونة؛ في البيت بعثرت كل أمتعتها وهي تبحث عن الأوراق، عن الوثائق، عن عناوين صديقاتها بـ«فرنسا» وعناوين معارفها هناك.

طوال أسبوع وهي تتصل وتكرر الاتصال بهم؛ بعضهم تجاهلها، وبعضهم قدم لها واجب العزاء، فازدادت حيرتها، وارتفع ضغط الدم ونسبة عدم التوازن في تفكيرها وتصرفاتها.

في غمرة الاتصالات جاءها الخبر اليقين من أقرب صديقة لها بـ«فرنسا»، والتي كلفتها باستخراج أوراق الإقامة وأوراق العمل لمساعدتها على العودة إلى «فرنسا».. خبر زاد الطين بلّة، وجعلها تفقد كل أسلحتها، وتنهار معنوياتها.. أبلغتها صديقتها أن «الملالي» قدم شهادة وفاة زوجته «زهيرة» إلى كل السلطات المعنية بما فيها إدارة العمل، وأغلق كل الحسابات البنكية، وصفَّى كل الممتلكات الفردية والمشتركة، وسلم جواز سفر زوجته «زهيرة» إلى سلطات الهجرة مدعيًا أن لزوجته أختًا توأمًا، تريد أن تستغل جواز السفر للدخول إلى التراب الفرنسي، ثم اختفى، ما عاد له أثر في البيت، ولا في العمل أو المدينة.

حينها أدركت لماذا رفضت السفارة الفرنسية استقبالها، ولماذا بعض معارفها بـ«فرنسا» يقدمون لها التعازي، ورغم ذلك، قامت بعدة محاولات، وطرقت كل الأبواب، وحين يئست، استسلمت لواقعها، ولتدبير أمورها، وأصبحت تبيع البغرير!

المخزني جلّول

اشتُهر المخزني «جلول» بعدة أسماء، منها: «جلال» و«الجيلالي» و«جيلالة»، بين الباعة المتجولين بأنه أشرس رجال القوات المساعدة بمنطقة نفوذه والأحياء المجاورة لها، كانوا إذا رأوه فرُّوا هاربين تاركين بضاعتهم التي كان يصادرها.

كان طويل القامة، مفتول العضلات، صارمًا، لا يتفاوض، ولا يتسامح، ولا يرْتشي، محبوبًا من طرف رؤسائه، بل كان يُرَشّح لكل المهمات الصعبة، ويُكلَّف بكل العمليات الخاصة المتعلقة بالضبط والتمشيط..

في قمة جبروته، عاد إلى بيته على غير عادته ذات يوم، صرخ صرخة مدوية وهو يرى زوجته مع جاره في وضع مُريب، أرعد وأبرق، ثم أمطرهما سَبًّا وشتْمًا وضَرْبًا، إلى أن سقط مُغْمًى عليه.. أُصيب على إثرها بشلل نصفي، شمل نصف الوجه واليد والرِّجل من الجهة نفسها من الجسم.

بعد إجراءات مسطرية مُعقدة، أُحيل على المعاش.. كان معاشًا هزيلًا، لا يُغطي مصاريف عشرة أيام، فما بالك بشهر! حتى العاشق الذي كان يتردد على بيتهم، لم يستطع تحمل مصاريفهم، ففر هاربًا.

تراكمت عليهم الديون، وهي تطوف به بين المستشفيات العمومية بلا فائدة، وتتنقل به بين الفقهاء والأولياء بلا معنى، إلى أن صدر في حقهم حكم بالإفراغ من السكن الذي يقيمون فيه، فحملته بعد تنفيذ حكم الإفراغ إلى مسقط رأسه بنواحي «ورزازات»، حيث تقيم أمه العجوز.

لم تتحمل العيش معه في منطقة نائية ومهجورة ومعزولة، لا حركة فيها ولا رواج، وهي التي اعتادت صخب «الدار البيضاء»، حيث تعرفت عليه بأحد الأحياء الشعبية وتزوج بها، لم تكن تعلم أنَّ له أسرةً، ولم تر أحدًا منهم زارهما طيلة فترة زواجها به، حتى لما أنجبت ابنتهما الوحيدة «رجاء» لم يحضر أحد منهم، ولم يخبرها يومًا عنهم.

بعد رحيل الزوجة البيضاوية دون طلاق مع ابنتهما الوحيدة «رجاء» ذات السنوات الخمس، بقي «جلول» في بيته القديم تخدمه أم عجوز، بمعاش زهيد، يجتر ماضيه كمن يعيش في إقامة جبرية، حتى زائروه من سكان القرية، وهم أكثر فقرًا منه، يتأسفون لحال رجل تخلّت عنه الزوجة، وعاكسه الحظ، وخانته الصحة، وهي أصعب أنواع الخيانة على

الإطلاق، وكانوا كلما سألوه: بماذا تشعر؟ قال: بالجوع في بطني، وبالاشتياق لابنتي، وبالإشفاق في عيونكم، وبالمهانة في وضعي.. كلمات ممزوجة بحركات لإيصال المعنى المطلوب.

حين زاره «علال» صديق الطفولة الذي اعتاد زيارته بين الفينة والأخرى، للترفيه عنه، واسترجاع ذكريات الطفولة معًا، وجد الرائحة والذباب يسيطران على المكان، بعد أن قضى «جلول» حاجته بعين المكان، وأمه غائبة لاستحضار معاشه الزهيد من مركز البريد، احتار «علال» في أمره، فخرج مسرعًا، وجلس قرب البئر يبكي كطفل صغير ضاعت منه لعبته، في انتظار عودة العجوز لمساعدتها على تنظيف المكان.

نادرًا ما كان يُسْمَعُ صوته أو نَحيبه في أجواء البيت، إلا همهمات من أمه وهي تدعو له بالشفاء، وهو قابع بلا حراك في مكانه الذي أصبح كل عالمه ودنياه، نَهَارُهُ كَلَيْلِهِ، يمرُّ بطيئًا ورتيبًا وكئيبًا، لا جديد فيه، ولا أمل في الأفق.. يموت في كل يوم ألف مرّة، ويأكل وجبة واحدة ليعيش، من يد امرأة عجوز، بطيئة –بحكم السن– في كل شيء، حتى في تهيئة الطعام.. ولا تسمع في دنياه إلا طنينَ الذباب نهارًا، وصريرَ الصراصير ليلًا، وبعض الآهات والتأوهات، تارة من «جلول» حين تُقَلِّبُ أمُّه

جسدَه ذات اليمين أو ذات الشمال، وتارة أخرى تصدر من أمه وهي تبذل مجهودًا في ذلك، مجهودًا يفوق طاقة امرأة عجوز.

ظل على حاله، وطالتِ المدّة، قلّت فيها الزيارات، بل انعدمت في الفصول الشتوية، إلى أن استيقظت القرية ذات صباح على صراخ لم يسبق لهم سماعه بهذه القوة، صراخ من شدته حرّك أوراق الأشجار، وأفزع الطيور، فَوَلَّتْ هاربةً مِنْ أعشاشها.. الكل هرول مسرعًا إلى مصدر الصراخ، إلى بيت المخزني «جلول»، وجدوا أمه العجوز مستلقية على كتفه، وقد فارقت الحياة، أما هو فلم ينقطع عن الصراخ، آه يا أمي.. آه.. لِمَنْ تركْتِنِي؟! حتى أنت تتخلين عني وتتركينني! وحيدًا عاجزًا! آه يا أمي آه! الْتَفَتَ إلى الحاضرين يحكي لهم بعض الحكاية بكلمات متقطعة مستعينًا بحركة يده غير المشلولة، لإيصال معنى كلماته متممًا حكايته، قائلًا:

حين أحسَّتِ المسكينة بِدُنُوِّ أجَلِها، اقتربتْ مني، وقالت لي: أشعر بدوارٍ، سأضع رأسي على كتفك حتى أرتاح قليلًا يا ولدي، لما طال صَمْتُها وسُكونُها، حركتُها عِدة مرات، كانت بلا حراك، ثم يلتفت إليها: آه يا أمي.. حتى أنتِ! حتى أنتِ ترحلين! وضع رأسَه في حِضْنِها صارخًا: ماذا فعلت يا أمي في حياتي حتى أُعاقب هذا العقاب؟! كان من

شدة الصدمة يهتز بحركات، ويستعين بيده السليمة وملامح وجهه لإتمام معنى ما يحكيه، وهو الصامت على الدوام.

اجتمعت نساء القرية، وحملنها إلى غرفة أخرى للقيام بإجراءات الغسل، وتأهَّبَ الرجال لإحضار الكفن قبل عملية الدفن، ولم يتوقف «جلول» عن البكاء والصراخ والولولة.. أحضروا النعش، أطالوا النظر فيما بينهم؛ لم تكن لهم طاقة على حمل «جلول» معهم إلى المقبرة، فحملوها وانطلقوا، وتركوه وحيدًا مع قليل من النسوة اللائي يبكين لبُكائه.. توقف عن الصراخ، وبدأ يزحف في اتجاه المقبرة، كل محاولات النساء باءَتْ بالفشل لمنعه من الزحف على بطنه، أما الصبية فقد التفُّوا حوله يحاولون مساعدته، وأغلبهم حُفاة، لم يعتادوا مشاهدة رجل يبكي ويزحف في آن واحد.. تقدمتْ أصغرهن سِنًّا منه، ووضعتْ يدَها على كتفِه، تُهَدِّئ من روعه، لعله يتوقف عن البكاء، ويتوقف عن الزحف.. فخرَّ مُسْتسلمًا.

في المساء اجتمع سكان القرية، كل من تربطه قرابة «بجلّول»، لدراسة وضعه، وحل معضلته. اختلطت عليهم الأمور، فقد وجدوا حلًّا لأكله وشربه. لكن احتاروا في مسألة تغيير الملابس وقضاء الحاجة.. أما هو فقد امتنع عن الأكل والشرب رغبة منه في وضع حد لحياته، ظل على

حاله ثلاثة أيام، إلى أن أبلغوه أن «طامو» ارتضته زوجًا، وستهتم بحاله وحالته، وظلوا يتحايلون عليه ليوافق، وهو يعلم أن «طامو» امرأة خمسينية، قوية البنية، تزوجت عدة مرات ولم تنجب، تحب المغامرات، وليس لديها ما تخسره، لعلها ستخوض هذه التجربة من باب الفضول أو الشفقة.. فور موافقته قرأ الحاضرون الفاتحة على الفور، ثم تركوها معه وانصرفوا تباعًا، وكأنّهم على عجل من أمرهم.

كان «جلول» يرى، ولا يرى ضلالًا وأشباحًا تظهر وتختفي، فور أن يزحف الظلام على القرية، يسمع ولا يسمع وشوشة وهمسات، يرى ويسمع، ويتجاهل الأمر، ثم يغمض عينيه مُكْرهًا، ويجر اللحاف على وجهه، وينكمش بأطرافه القابلة منها للتحرك متمنّيًا الموت، الموت الذي ظل يتمناه كل ليلة سبع سنوات، إلى أن تحققت أمنيته.

بعد مرور خمس سنوات على وفاته، جاءت طبيبة عن طريق المركز الصحي تسأل عنه، كانتْ صدمتُها كبيرة حين علمت بوفاته، وكانت صدمة الساكنة أكبر حين علموا أنها ابنة «جلول» الوحيدة «رجاء».. الطبيبة «رجاء» ابنة «جلول».. الطبيبة «رجاء» ابنة «جلول».. تردد صداها بين أرجاء القرية، من أقصاها إلى أقصاها، تأثّرت الطبيبة «رجاء» لوفاة والدها، ووقفت تتأمل بِحسرةٍ البيتَ الذي كان يسكن

فيه، ثم زارتْ قبرَه الذي يقع بإحدى زوايا المقبرة.. قبر متهالك، لا شاهد فيه يحمل اسمه وتاريخ وفاته، قرأت عليه الفاتحة بدموع صامتة.. ما آلمها أكثر، أنها لم تُبَلَّغْ بخبر وفاته، ولم تحضر جنازته، ولم تتلقَ التعازي فيه، ولم تعلم بوفاته وببعض معاناته إلا لما زارت مسقط رأسه، قادمة من مدينة «الدار البيضاء» في رحلة بحث عنه بعد وفاة والدتها.

حين يُلْغى العقل

كان «حمزة» مُدَلَّلَ الأُسرة، مُستجاب الطلبات، وحاكمًا مُستبدًّا بين إخوته البنات؛ طلباته أوامر بالنسبة لهن، فقد أنجبته أمه «زهرة» بعد خمس بنات، لذلك ظلت تقيم له الحفلات كلما حقق إنجازًا أو نجاحًا.. تابع دراسته رغم الإخفاقات، وأنهى بصعوبة مشواره الدراسي المتعثر بحصوله أخيرًا على الإجازة في الاجتماعيات.

منذ حصوله على الإجازة وهو يشارك في المباريات دون جدوى، ويرسل الطلبات إلى الشركات دون فائدة.. قليل من تلك الشركات مَن أجابت بالاعتذار.

كَلّ ومَلّ وتَعِبَ من الوقوف على ناصية الدرب عند ملتقى الطرق، ومن الجلوس على عتبات البيوت، ومن النوم حتى منتصف النهار.

كَلّ ومَلّ وتَعِبَ من اليد السفلى والاستدانة من والديه ومعارفه، ومن مشاهدة التلفاز طول النهار، ومن المتابعة بعينيه للمارة العابرين في الأزقة والدروب.

كَلّ ومَلّ وتَعِبَ من الوحدة والعزلة والقلب المكسور بلا فارسة للأحلام تؤنسه، ولا رفيقة درب تُخَفف عنه، وهو يرى أحلامه تتبخر، وأزهار حديقة مستقبله قد جفّتْ وذبلت، ولم تتفتحْ بعد.

فقرّر ذات صباح من صباحات شهر غشت، أن يُغَير مجرى حياته ولو مؤقتًا، وأن يعطي لعقله فترة استراحة، وأن يعطي لمعارفه عطلة من النظر إلى وجهه العبوس، رغم مسحة الجمال التي تميزه عن كل أخواته.. فتح دولابه وأخرج ثيابه القديمة التي لم يعد يستعملها، وضعها في كيس، وأبلغ أهله أنه سيسافر شهرًا عند أحد أصدقائه بإحدى المدن المغربية.

اختار مدينة سياحية ساحلية، لبس ملابسه الرثة، أعفى شعر رأسه من المشط، وأطلق العنان لنمو لحيته، وقرر، بل أقسم على نفسه أنه طيلة شهر بكامله لن يفكر في مستقبله ولا في طعامه، ولا في طبيعة حياته، وتدرب على كلمات سيرددها طوال النهار، وهي: «الجنة في القلب، وجهنم في العقل، والويل لمن لا صبر له. الدراسة جهد،

والوظيفة حظ، والويل لمن لا حظ له»! طاف بالمدينة مُردّدًا كلماته، ثم اختار أحد الأحياء للاستقرار فيه.

في رُكن مُنزوٍ بأحد الأزقة المشبوهة ذات السمعة السيئة التي يكثر فيها الرواج والهرج والمرج، قضى ليلته الأولى.. انتبهت له الساكنة، وحاولت تفسير كلماته دون جدوى، تعاطفت معه، وانهالت عليه العطايا؛ ملابس، وأكل، وأغْطية، وأسئلة عن اسمه وعن أهله، وعن مدينته ومحل إقامته، وفي كل مرة لا يردد إلا كلماته: «الجنة في القلب، وجهنم في العقل، والويل لمن لا صبر له. الدراسة جهد، والوظيفة حظ، والويل لمن لا حظ له»! ازداد اهتمام النساء به، خصوصًا «فتيحة» وصديقاتها، ولم يكن مرتاحًا لذلك.

واظبت «فتيحة» على إحضار الطعام له كل يوم، ثم أدخلته ذات يوم إلى بيتها؛ أحسّ بالخوف والرعب، وبدأ جسمه يرتعش، وهو يسترق النظر إلى ما حوله.. بيت أنيق وفسيح ومُرتب، امرأة سمينة ومَرحة، تجاوزت الخمسين، يشتغل زوجها في أوروبا.. كانت «فتيحة» امرأة سخية، وشهيتها مفتوحة للأكل والضحك والتسلية وأشياء أخرى.. أدخلته إلى الحمام للاستحمام، وجهزت له ملابس نظيفة لزوجها المهاجر، راودته عن نفسه، ثم ساقته إلى الفراش؛ اجتاز الامتحان

بتفوق؛ استحسنت «فتيحة» معرفته وإجاباته.. خرج مَزْهُوًّا بملابسَ جديدة، وطعام شهي، ولحظات ممتعة.

تَغْيِيرُ الملابس كان رِسالة مُشفرة، لم يَسْتَوْعِبْها في البداية، ولم يفكَّ رُموزها إلا بعد أن بدأت تتقاذفه أيادي بعضهن من صديقاتها، ومع كل عملية تغيير للملابس، تُتْرَكُ علامة مميزة على جسمه، علامة مرور.. ساعتها أدرك اللعبة، وازداد قلقه، رغم تحصله على كل ما يحتاج إليه دون عناء، فإنه لم يكن مرتاحًا، وفي الوقت نفسه لم يستطع الخروج من هذه الدوامة، وقد أصبح مُنْهكًا، ويكاد يفقد عقله فعلًا، من شدة الأسرار والخبايا التي تتهاطل عليه، أو التي تمرّ أمام عينيه، أصبح كعلبة سوداء لطائرة تاهت عن مسارها.

كل يوم يحاول التقرب من العائلات المحافظة ورجالاتها المتزنة ليحميَ نفسه، فلم ينجح؛ حاول الخروج من الحي، لكن لم يجد منفذًا، بل أصبح مُحاصَرًا ومَسجونًا، تحت قبضة خمسة نساء تجاوزن الخمسين، لا يعرف ما يجمعهن! أو ما هو الرابط بينهن! ولا لِمَ يتقاذفْنَه كالكُرة بينهن! أحس بالخطر حين انتقلن من الترغيب إلى التهديد، إن حاول أن يفضح المستور. وأحسّ بالخطر أكثر حين أصبح مكان مبيته مستودعًا لممنوعات «أمجيدو»، وهو بائع المخدرات بالحي والأحياء المجاورة.

وفي ليلة مقمرة، وبعد أكلة دسِمة، تمدد في فراشه يتأمل حاله.. تذوق شيئًا من الممنوعات التي توجد بين أمتعته، وتمادى في تَذَوُّقِهِ.. أحس بالنشوة، ثم بالغرور وتضخُّم الأنا؛ فانتصب قائمًا يُجَلْجِل بصوته الجهوري رافعًا يديْه إلى الأعلى: «أنا الأحمق المجنون، أنا سليمان عصره؛ حظيتُ بما لم يحظ به أحد قبلي، ولن يحظى به أحد بعدي، أكلتُ الطعام الشهي مجانًا، وتَجَمَّعَ الحريم حولي، ولا ينقصني إلا الخمر والنبيذ»! استرسل لسانه في التعبير عن مغامراته، تردد صدى صوته بين جنبات البيوت والمنازل، ففُتِحَت الأبواب والشبابيك، صحا من غفلته، وأدرك أنّه ليس في كل مرّة تسلم الجرة، وجَرَّته قد فاضت بما فيها، ففرّ هاربًا دون وجهة مُحددة.

عاد إلى أسرته، وحاول أن يعود إلى حياته الطبيعية، فلم يستطعْ، وحاول أن ينسى رحلته، فلم يفلحْ، وحاول أن يتحملَ مسؤولية تصرفه، فلم يقدر، فقرر الرحيل إلى المجهول من جديد، إلى الجنون والمجون، واختفى...

مرّتْ سنوات على اختفائه، مرّتْ بطيئة ورتيبة، لا أثر له ولا خَبَرَ عنه، حتى أصبح والده طريح الفراش، أما أمه «زهرة» فظلت في دوّامة البحث؛ كلما جاءها خبر عنه –عبر الهاتف– انطلقت في رحلة جديدة

على أمل رؤياه، حتى استنزفوا طاقتها بالأخبار الزائفة، وبعْد كل رحلة تعود منهوكة ومُفلسة، تسبقها الدموع إلى مقر سُكناها، ومع ذلك لم تستسلمْ؛ بقيت تعلق صوره بالمحطات الطرقية، كما بقيت تعرضها على المارة كلما خرجت للتسوق، وعلى المسافرين كلما سافرت، كل أوقاتها أصبحت مرتبطة بالبحث والانتظار، أما أوقات الراحة فتقضيها في غرفة «حمزة» بين دموعها وملابسه مستأنسة برائحته ومتعلقاته.

ذات صباح جاءتها مكالمة من ممرض بأحد المستشفيات العمومية بشمال المغرب يُدعى «عصام»، يبلغها أنّ الشخص المبحوث عنه، أوصافه تتطابق مع شاب يرقد بالجناح أربعة، من شدّة الشوق إليه والفرح للقياه والخوف من المجهول لم تدر كيف مرّت رحلتها! ولا كيف وصلت! لم تَعِ نفسها إلَّا وهي تضمه بين أحضانها بدموع الفرح، وكأنّها ملكت الدنيا وما فيها، مُعلنة نهاية رحلة البحث والعذاب.. تأملته، كان شاحبًا، هزيلًا، شاردًا، يرتدي ملابسَ مُمَزقة مُتَّسخة، حين نظرت إلى الممرض «عصام» مستفسرة بعينيها وحاجبيها عن حاله، قال لها هامسًا:

إنّه على هذا الحال منذ سلّمته لنا السلطات الأمنية بولاية أمن المدينة، إذْ وجدتْهُ مرميًّا بمطرح للنفايات، ينزف دمًا وفاقدًا للوعي.. بعد الفحص تبين لنا أنه فقد إحدى كليتيه، ويعاني من مضاعفات.. بدأت

تولول صائحة: أَبَلَغَتْ بهم الوقاحة إلى سرقة الأعضاء البشرية؟! ألم يكفهم ما سرقوه من هذا الوطن؟! قاطعها الممرض: احمدي الله أنه ما زال حيًّا، هناك قاصرون بعد اختفائهم سُرِقَتْ منهم كل أعضائهم الداخلية وماتوا، احمدي الله على هذا اللقاء بعد الاختفاء، احمدي الله أنه ما زالت في العمر بقية.. وافقته على الفور، وخرّتْ ساجدة لله، حامدة له على المُصاب، ثم ضمت ابنها إلى صدرها تواسيه قائلة: هذا قدَرُك، قدرك أن تعيش في بلد كل شيء فيه يُسْرَق، حتى كُحْل العين، وبالقانون أحيانًا! أمّا هو فقد ظل في حالة شرود، هائمًا في ملكوت الله، يردد بصوت خافت جدًّا مع إيماءات برأسه:

أم الحمام مرّة، قالت له: «لا تخرجوا»، فضحكوا من قولها، ولم يبالوا بالخطر، وخرجوا من عشهم، ولم يبالوا بالخطر، لكن أتاهم ثعلب، فأكل الحمائم.. هذا جزاءُ كلِّ مَن يعصي أمر أمه...

لم تفهم ما يردده على التوالي، أعادت ضمه إلى صدرها، ثم سألت الممرض «عصامًا»: لماذا لا يتجاوب معي؟ أجابها معلقًا: ما زال مصدومًا من هول ما عاشه وما عانى منه، ويعلم الله كيف مرت ظروفه وهم يسرقون بكل وقاحة جزءًا منه!

اتصلت بأقاربها تبلغهم الخبر، ثم قامت بكل إجراءات الخروج، ونقلته إلى إحدى المصحات الخاصة بمدينة «الدار البيضاء»، وتبين للأم بعد الملازمة والمصاحبة أنه لم يفقد كليته فقط بل فقد معها أشياء كثيرة، منها: العقل والابتسامة وأدوات التواصل؛ أصبح بدائيًّا في مشاعره وتصرفاته.. مع ذلك تضمه في كل مرة إلى حضنها، وتحمد الله أنه ما زال حيًّا يُرزق، ويُحدث حِسًّا في البيت، ويقيم معها في عالمها ودُنياها.

"جميلة" والمظاهر

أكثر ما كان يميز «جميلة» عن باقي موظفي وزارة الخارجية، هو بياض بشرتها الناعمة الذي يُخفي أنانيتها وأناقتها الراقية في اللباس الذي يحجب عَجْرفة وجمالًا مستعارًا أشبه بقِناع يُخفي بشاعة الروح والسلوك.

في وجبة الغذاء بمطعم الوزارة، كانت كل طلباتها غريبة، غرابة أفكارها، وكل مشروباتها خالية من السكر حتى لسانها، وكل مأكولاتها بلا مِلح حتى حديثها؛ لذلك يتجنبها الزملاء، لسلاطة لسانها رغم قِصَر قامتها، ويطلقون عليها اسم «الجرافة»؛ لأنّها تجرف كل ما تجده أمام عينيها، بِيَدَيْها، من ممتلكات الوزارة، أقلام، أوراق، أدوات، وتحوله إلى ملكية خاصة، حتى الكرسي الذي تجلس عليه، كانت تُخفيه بعد انتهاء عملها حتى لا يجلس عليه أحد في غيابها، ومكتبها خط أحمر، لا يمكن الاقتراب منه، وكانت حين تغضب كل شياطين الأرض وعفاريتها يحضرون استعدادًا للهجوم على الخصم.. لم تكن لها صورة في أي حفل خوفًا من السحر، ولها تعويذة سحرية في كل زاوية من زوايا مقر عملها.

تجاوزت الثلاثين بسبع سنين، ولا أحد تقدم لخطبتها بحسن نية، بل بعضهم تقدم، ثم راوغ، وبعدها اختفى دون أن يترك أثرًا أو سببًا لاختفائه، وكانت ترى أن كل الرجال خَوَنَة، في صورة واحدة، ومتشابهين في كل شيء؛ في الكلام، وفي التمثيل، وفي الخيانة، لا أمان لهم، ولا ثقة فيهم، وكانت والدتها الحاجة «غيثة» تزكيها في هذا الاعتقاد.

ظل بُرجها يلفّ ويلفّ، وعيناها تبحثان، وعقلها يشتغل، حتى وقع في شباكها أحد المبهورين بالمظاهر البرّاقة، إنه «حميد».

«حميد» شاب من حي شعبي، لكنه ليس من الذين يحمدون الله ويرضون بما قُسِم لهم.. ظلَّ ينظر إلى الأعالي منذ صغره، ويحلم بفتاة شقراء ذات بياض، وتكون من عائلة غنية، لها شقة وسيارة ورصيد في البنك، ووظيفة محترمة بأجر عال.. حين رآها حسبها صيدًا ثمينًا، وحسبتْه عريسًا مغفلًا، ومشيا في طريق تأسيس مشروع الزواج، وكلاهما ينظر إلى صاحبه من زاويته الخاصة، ولم يمض على أول لقاء بينهما سوى شهر واحد، حتى كانا يستعدان لحفل زفاف أسطوري.

بعد حفلة الزفاف بيومين، جلس العريس يندب حظَّه، وأدرك لماذا كان كل زملائها الموظفين ينظرون إليه باستغراب كلما جاء مساءً ينتظرها أمام باب الوزارة! وكيف كان كل المدعوين في العرس ينظرون

إليه باندهاش، وهو جالس بجانبها في صدر قاعة الحفلات! ما زال يتذكر تلك الابتسامة الماكرة التي لم تفارق مُحيَّا العدلين وهما يكتبان عقد الزواج! ما بين وشوشة بينهما، وهمس مع أهل العروس! أحس بالوحدة، وتمنى لو كانت أمه حية، ولو كان أبوه ما زال على قيد الحياة، ولو كانت أخته مقيمة بالمغرب.. ما أحوج المرء إلى العائلة في مثل هذه الظروف، وهذه المواقف!

طالت الوشوشة، وحين استفسر الحاضرين، بلّغه أحد العدلين أنه مُعْفًى من مُقَدَّم الصّداق، لن يدفع أي سنتيم، ابتسم مَزْهُوًّا بنفسه، ولم يُعِرْ أي اهتمام للمؤخر، كل اهتمامه كان منصبًّا على شقتها وسيارتها والأثاث الفاخر الذي سينعم فيه بعد الزواج.

كان يظن أنه فاز بدجاجة جاهزة للأكل، لا تنقصها إلا شهية مفتوحة! ولم يعلم أنّ كل تلك المظاهر وراءها قروض وشيكات وإيصالات وأقساط شهرية، وفوقهم سلوك عدواني، وروح شريرة، وجمال مصطنع..

وأدرك بعد فوات الأوان أن كل العرسان دخلوا أقفاصًا ذهبية، إلا هو كان قفصه من فولاذ، من الصعب الهروب منه، حيث تلقى الصفعة

الأولى حين جمعهما فراش واحد في أول ليلة؛ عذرية مزيفة، ودماء مصطنعة، تبدأ بلهفة خاطفة، وتنتهي ببرود عاطفي.

وتوالت الصدمات، وظل يبتلع دون هضم أو تفكير، صدمة خلف صدمة، وحقيقة تلو حقيقة، لكن الصدمة الكبرى يوم طلبت منه مصلحة الموارد البشرية للمؤسسة التي يعمل بها نسخة من عقد الزواج لتصحيح وضعيته الإدارية، بعد أخذٍ وردٍّ، سلمته «جميلة» نسخة من العقد، لم يطَّلع عليه إلا صباحًا وهو يتناول فطوره في المقهى، وهي عادته التي لم تتغير رغم زواجه، فور أن بدأ قراءة العقد، تسمّر في مكانه، جحظت عيناه، واصفرّ لونه، وأشعل سيجارة، والسيجارة الأولى ما زالت في فمه! ثم رمى كلتيهما بعيدًا وهو يحملق في الورقة.. غير ممكن «جميلة» اسمها الحقيقي «جُمِيعة»! رفع رأسه وبدا يفكر بعد اطّلاعه على تاريخ ازديادها، إنها أكبر منه بثلاث سنوات! وعاد يمعن النظر في العقد.. حتى مسقط رأسها «نواحي عبدة» وليس مدينة «فاس»!

جلس يستعيد شريط الأيام الأولى التي تعرف خلالها على جميلة، لم تبلِّغْه بكل هذا إطلاقًا، صحيح كانت حريصة على إخفاء أوراقها الشخصية عنه، لكنه لم يعر للأمر أي أهمية، ثم واصل قراءة العقد إلى

أن وصل إلى مؤخر الصداق.. ابتسم ابتسامة شاحبة كلها حسرة ومرارة على نباهته التي خانته في لحظات حرجة مثل هذه، وكأنه لم يكن في وعيه، حاول أن يقنع نفسه أنّه هو الذي فتح صدره بطمعه لكل تلك الضربات، وخاض المغامرة بكامل قواه العقلية، وعليه أن يتحمّل، وأن يستمر فيها حتى النهاية.

ظل يجاهد نفسه، ويبتلع الإهانات حتى دخل في حالة اكتئاب، فأصبح داخل البيت ينفذ الأوامر ويبتلع الإهانات، ثم يخلو بنفسه، ولا يجد راحته إلا في خلوته.. كانت علاقتهما منسجمة في الظاهر أمام الملأ، ومتنافرة فوق السرير، فيها مدّ وجزر، وبرزخ يحول بينهما، لذلك لم تعرف علاقتهما الدفء والاحترام ككل العلاقات الزوجية.. واستمرّ هذا التوتر في علاقتهما الحميمية، وازدادت علاقتهما تأزمًا وتعقيدًا، وأصبح الصمت حاجزًا عن التعبير عن عواطفهما الجسدية.. ظل محترمًا، وصاحب قرار في عمله، ومهانًا وسجينًا بلا كلمة ولا سلطة في مملكتها!

مسكينة ابنتي «جميلة»، حظها في الدنيا قليل، مضى على زواجها ثلاث سنوات ولم تنجب، زارت أغلب الأطباء، وقامت بكل التحليلات، وفي كل مرّة النتيجة واحدة؛ لا مانع لديها، ولا لدى

زوجها.. هكذا كانت تردد الحاجة «غيثة» أم «جميلة» على مسامع الحاضرات كلما اجتمعت بهن مستفسرة إيّاهن: هل يعرفن طبيبًا مشهورًا أو عشّابًا متمكنًا أو عرّافًا مشهودًا له بذلك!

الحاجة «غيثة» أصلها من مدينة «فاس»، تتقن الفرنسية والإنجليزية والإتيكيت، تدرجت في الحزب خلف زوجها، حتى أصبحت لها صولة وسلطان.. اشتُهرت بلقب «حرم السفير» في حياة زوجها وبعد مماته، امتزجت حياتها بين السياسة وتربية ابنتها «جميلة»، وابنها «إلياس» الذي هاجر إلى «الولايات المتحدة الأمريكية» لمتابعة دراسته.. تُعد من الأعيان ذوي الأملاك، وإحدى المستفيدات من الريع السياسي؛ إذْ تملك رخصتيْن للنقل: رخصة محلية للنقل داخل المدينة، ورخصة كبيرة للنقل بين المدن، وبقعًا أرضية بأثمنة رمزية، اشترتها من بعض الجماعات الحضرية، كما لها أذرع في الدوائر الرسمية، ووسيطة في المسائل المستعصية؛ لذلك كانت «جميلة» تستقوي بهذه الأم على زوجها «حميد» وعلى زملائها في الشغل.

وظل مقام «حميد» جحيمًا لا يُطاق، طوال ثلاث سنوات، إلى أن أصيبت الحاجة «غيثة» بشحوب وهزال متزايد، وصعوبة في أثناء المشي بخطوات غير متزنة، وعدم تحكُّم في المثانة! لم يستطع الأطباء تحديد

علتها رغم كل الفحوصات، وفي كل يوم كانت «جميلة» تقيم مأتمًا في البيت، إلى أن استطاع أحد الأطباء تشخيص نوع المرض؛ إنه يتعلق بأورام النخاع الشوكي، وأحاطهم عِلمًا أنها من الأورام النادرة التي تصيب الإنسان، وهي الآن تحتاج إلى عملية لاستئصال الجزء المصاب والمناطق القريبة منه، عملية مكلفة وناجحة إذا أُجريت خارج «المغرب».

انشغلت «جميلة» بأمها، وانشغلت الحاجة «غيثة» بمرضها، فتنفس «حميد» الصعداء وانشغل هو الآخر بتجهيز الأوراق للسفر إلى «فرنسا» بأمر من «جميلة» التي قررت أن تضرب عصفورين بحجر واحد؛ من جهة تقوم الحاجة «غيثة» بالعملية، وفي الوقت نفسِه تقوم هي بفحوصات قصد الإنجاب، حتى لو دعت الضرورة لعملية طفل الأنابيب، المهم أن يكون لها ابن ككل الأمهات.

اعتادت «جميلة» أنها كلما ابتسمت لها الأيام يُصاب حظها بضربة شمس، ويبعثر كل أوراقها، حين حمدت الله على وصولهم إلى «فرنسا» رفقة والدتها المصابة بسرطان النخاع الشوكي وزوجها «حميد» بسلام، وتسلمت مفاتيح غرف الفندق الذي سيقيمون فيه، التفت يمينًا وشمالًا بحثًا عن زوجها، لتأمره بحمل الحقائب بدلًا من النادل حتى لا تدفع

إكرامية، فلم تجد «حميدًا»، اختفى! تشتت فكرها وجهدها بين العناية بأمها والبحث عن زوجها الذي اختفى ولم يترك له أثرًا!

حافظت «جميلة» على مواعيد زيارة المستشفى، رغم اختفاء زوجها، إلى أن أُجريت العملية للأم، لكن مع الأسف، لم تنجح العملية، وتلتها عملية أخرى لم تنجح، ولم تفلح في وقف تدهور حالتها الصحية، ثم وضعوها في قسم العناية المركزة.. ظلت تقاوم إلى انهارت، واسلمت الروح لباريها.

وجدت «جميلة» نفسها وحيدة في باريس، عاصمة الأضواء.. الأم ماتت، والزوج اختفى، وأخوها لا يجيب على مكالماتها، وعليها أن تقوم بعدة إجراءات لتعيد جثمان والدتها إلى «المغرب».. اتصلت بموظفي السفارة المغربية الذين قدموا لها التسهيلات وقاموا بكل الإجراءات.

حين وضعوا صندوق الجثمان مع البضائع في الطائرة أحست بالمرارة، بالإهانة، وانطلقت في البكاء، ليس على وضعها، ولكن على وضع المواطن المغربي حين يموت في الغربة؛ إذْ بدا لها حاله أكثر سوءًا من حالها!

الحاجّ "ما زار"

كان الحلاّق «حمّو» صديقا للجميع، يعشق الشعر، ويبيع الوهم، وله خبرة في كل حِرفة، وحكاية في كل مهنة؛ لأنه ظل منذ صغره كالفراشة، يحلق ويَتَنَقّل بين الحِرف والمهن، ويستخلص منها النوادر والعِبَر.

يزاول أكثر من حِرفة موسمية في فصل واحد، ويتدرج فيها بسلاسة حسب الظروف والاحتياجات، فهو موظف بالجماعة الحضرية في الإنعاش الوطني، لكنه موظف شبح، وفقيه في المواسم والمناسبات، لكن بلا عمامة ولا جلباب، وجزار ليوم واحد فقط! يوم عيد الأضحى.. يمارس الختانة في فصل الربيع، والحجامة في فصل الصيف، والرقية الشرعية للمرضى بالصرع والمس في باقي فصول السنة.. لم يسبق له أن حج أو زار الكعبة، لكنه يُكْثِرُ الحديث بإسهاب عن أدق تفاصيل «مكة» وشِعَابِها، وعن شعائر الحج، ووَصْف قبر الرسول بـ«المدينة المنورة»، ومساواة القبور في مقبرة البقيع، وغيرها من أمور الحج في جلساته الخاصة والعامة، وفي أثناء معالجة رؤوس الزبائن!

لذلك كل معارفه والناس أجمعون كانوا ينادونه بـ«الحاجّ ما زار» في الحِلّ والتَّرحال، واشتُهر بينهم بهذا الاسم، لاشتهاره بالحديث عَنْ حجٍّ لم يَزُرْهُ، وَجِدَالِهِ فِي أمور لَمْ يُشَاهِدْهَا بِعَيْنَيْهِ.

ولأنه شاطر ولبيب، اشترى بقعة بثمن زهيد، في سرية تامَّة، وبعد أسبوع رأى أحدهم يشرع في بناء البقعة، ليكتشف الجميع أن البقعة بيعت لأكثر من شخص، ولتعويض خسارته والتخلص من سخرية الناس، شارك في قرعة الحج.

فاز في القرعة بتنازل أحد المشاركين فيها والمساهمين في عملية الإنزال لمصلحة «الحاج ما زار»، وكلما جاء أحدهم مباركًا أو مودِّعًا، اقترض منه مبلغًا من المال، حتى جمع مصاريف الحج.

في الحج انطلق مخططه، وأصبح قبل أن يطوف بالكعبة، يطوف على التجار ليشحت منهم أموال الزكاة، إلى أن شاهد صندوقًا لجمع التبرعات.. استحسن الفكرة، وصنع ثلاثة صناديق بمساعدة نجار صومالي تعرف عليه هناك.

وكتب على كل صندوق بِعِدَّةِ لُغات، يناشد فيها المحسنين للتبرع لإنشاء مسجد ودار للأيتام بمنطقة عربية أفريقية مسلمة، ووزع

الصناديق في أماكن ازدحام الحجاج، وقضى باقي أيامه يطوف على الصناديق ويجمع التبرعات بكل العملات، دون رخصة أو إشعار من السلطات.

عاد بأموال طائلة، بعضها نقدًا، وبعضها سلعًا من الأقمشة الحريرية، والساعات اليدوية، وغيرها من البضائع.. باع لمن أقرضوه، وأقرض من اشترى منه بضمانات.

ووعد كل من جاء يبارك له، أنه في المرة القادمة، سيهديهم ماء زمزم وتمرًا وسُبَحًا!

منذ عودته من الحج، والناس تغبطه لثرائه وغناه، مرددين قولهم: «تعلق قلبه بمكة، واقترض المال ليحج؛ فأغناه الله وزاده من فضله»! أما هو، فبعد عودته من الحج، وحصوله على التقاعد النسبي، غَيَّرَ اسْمَه من اسم «حَمّو» إلى «الحاج حميد» رغبة منه في محو اسم «الحاج ما زار» من ذاكرة معارفه.

وبدأ يستعد للدخول في غمار الانتخابات، والبحث في الوقت نفسه عن زوجة شابة متعلمة وجميلة تليق بالمرحلة القادمة، مرحلة «الحاج حميد».. ورغم ذلك، ظل معارفه يفضلون تسميته باسم الشهرة بدل

اسمه الجديد، كما ظلت الساكنة في غيابه لا تذكره إلا باسم الشهرة، ولا حديث عنه إلا باسم «الحاج ما زار»!

حين اشترى سيارة رباعية الدفع، بعد فوزه في الانتخابات، انتزع من أفواههم جميعًا «الرئيس»، وأصبح لقب «الرايس» أكثر انتشارًا من لقب الشهرة «الحاج ما زار»، ساعتها بدأ يتطلع إلى الانتخابات التشريعية، وإلى زوجة ثالثة من عائلة ميسورة تليق بالمرحلة القادمة.

هَمْهَمَة قاتلة

يحمل «حَمُّو» في صدره قلبًا حزينًا، وفوق رأسه طاقية بيضاء وتحتها هَمٌّ كبير، وفي يده عصاه، عكازته، لا يهش بها، ولا ينش، ويده اليسرى في جيب به قليل من معاشه الهزيل، مطأطئًا الرأس، لا يلتفت يمينًا ولا يسارا، ولا يوزع الابتسامات، ولا يقدم التحايا داخل الزقاق أو خارجه، يترك خلفه دائمًا كلمات عتاب لرفيقة دربه، التي رحلت إلى دار البقاء دون إذن منه أو وداع، وتركته وحيدًا في الحياة، وتائهًا إلى حد الضياع في منتصف الطريق، في البيت منفردًا وفاقدًا توازنه، وفي الشارع محدِّثًا نفسه بصوت عالٍ كالمجنون، أو على حافةِ الجنون؛ لقد فقد صحته وعقله وقلبه في لحظة واحدة، سرقهم منه فيروس «كورونا» حين سرق منه زوجته، ورفيقة دربه سنواتٍ طويلة، وتركه مشتَّتَ الفكر، ومشلولَ الإرادة، لا يجد من يخدمه في البيت، ولا يعرف كيف يخدم نفسه!

«ملعونة كورونا، سرقت منا الأحبة، وتركتنا للضياع»، يردِّدُها كثيرًا بصوت يجمع الحسرة بالأنين، يردِّدُها في المسجد، وفي الحديقة العمومية، وفي شوارع المدينة.

أصبح يتحرك وحيدًا، يقيم منفردًا، يعيش منعزلًا، كطائر اللقلق الذي يقيم في عشه بأعلى صومعة مسجد الحي، حيث رحل السرب دونه، وتركوه وحيدًا بعد وفاة رفيقة رحلته.

ما أقسى الفراق في خريف العمر! وما أبشع الخيانة في لحظات الثقة!

حين تصدر الخيانة منك إليك، فتخون صحتُك جسدَك، ويخون عقلُك رغبتَك، ويختار قلبُك ما ليس في مصلحتِك، ويخون صبرُك لسانَك، فتقول ما تندم عليه، وترحل رفيقةُ دربِك وأنت في قمة احتياجك إليها، ويرحل شبابك مخلِّفًا وراءه الضعف والشيخوخة، ويتخلى عنك الصديق في منتصف الطريق، عندئذ تصبح الدنيا عبئًا على كاهِلِك.

الخيانة كيفما كانت، تعمق الوحدة إلى آخر درجة، وتزيد في العزلة إلى أبعد حدٍّ، وتُدمي المشاعرَ إلى أقصى وجع، بل تجعل المرء أكثر شكًّا وارتيابًا من الكل، حتى من قراراته وملابسه!

كانا زوجين سعيدين بحبهما المتميز، وبوفائهما المتبادَل.. كل منهما يرى العالم بألوانه الزاهية من خلال عيني شريكه، رغم أن أحدهما عاقر، وربما يعاني من العقم كلاهما؛ لأنهما لم يفْحصا نفسيهما، ولم يزورا أي طبيب، مكتفية الزوجة «فاضمة» بالأعشاب، ومعتمدة على الطب الشعبي، فلم ينجبا أطفالًا، ولم يفكرا حتى في تبني طفل بدار الأيتام خلال زواجهما، وعاشا وحيدين.. وحين ماتت «فاضمة»، تكفَّلت الدولة بدفن الزوجة المصابة بفيروس «كورونا»، وتكلفت الجارات بالعناية بالزوج.. طُوِيَت الصفحة، وانتهى الأمر، وانشغل كلٌّ بما له، ودخل «حمو» في صمت كئيب، ووحدة قاتلة؛ ذلك ميراثه من زوجته الراحلة.

أصبح «حمو لعميم»، وهو عون سابق بالمحكمة الابتدائية، يكره العودة إلى البيت كل مساء، حيث يقضي النهار بين الحدائق العمومية والمساجد والمطاعم الشعبية، وفي المساء يشعر بقشعريرة غريبة في أثناء عودته إلى جدران بيته التي تحولت إلى أطلال تحمل الذكريات.. وبين هذه الجدران الصامتة التي تضيق بِنَفَسِهِ وصدره، يلازمه الأرق في لياليه، ولا ينام إلا قليلًا، وحتى إذا نام سُوَيْعَةً، فإنه يقضيها بين الأموات مناجيًا لهم، أو مستمتعًا بينهم.

تقوم صديقات المرحومة من الجارات كل يوم خميس بغسل ملابسه، وتنظيف بيته، وتزوده إحداهن بوجبة الكسكس كلَّ يوم جمعة بعد عودته من المسجد.

المتقاعد «حمو لعميم» ما عاد يصلح للزواج، وقد اقترب سنه من السبعين، ولا قدرة له على تغيير واقعه في غياب الصحة والإرادة، واكتفى بالعيش مستسلمًا لوحدته في وقته الإضافي، لأن وقته القانوني أو الحقيقي انتهى مع وفاة زوجته.

ذات صباح وهو في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، اعترضت طريقه عصابة من المراهقين، يحملون سيوفًا وسكاكين، ويضعون الكمامات كأقنعة تخفي ملامح وجوههم، ويستعملون نظارات سوداء لإخفاء احمرار عيونهم، ورؤوس مدفونة في قبعات مزركشة (كاسكيطات)، ويرتدون سراويل فضفاضة وممزقة، جعلت شكلهم أكثر غموضًا وغرابة، هجموا عليه كأشباح قادمة من قعر الجحيم، فَتَّشُوه بهدوء، ونهبوا ما في جيوبه بعنف، لقد سلبوا منه كل ما في حوزته حتى ساعة يده، ثم انصرفوا وهم يسخرون من الغنيمة الهزيلة، سمع أحد أفراد العصابة «حمو» يهمهم بكلمات غير مفهومة، فيها شيء من التذمر، عاد إليه، دون مقدمات أو تردد ضربه ضربة قاضية بسيفه الحاد، وكأنه

يتخلص من جثة محنطة لا فائدة من وجودها، وانطلق يجري ملتحقًا برفاقه.

كان «حمو» يبحث عن حل لوحدته، وكانت العصابة تبحث عن مال لشراء المخدرات، فالتقيا دون موعد، وافترقا دون منطق، حيث مضى كل إلى غايته بين الانتصار والانكسار، وعاد كل إلى منزلته بين المقر والمستقر.

اجتمعت حوله المارة الذين كانوا يتابعون الوضع من بعيد، من مصلين ومارة، لم يتساءلوا عن أمنه وأمانه، ولكن كانوا يتساءلون عن سبب استفزازه للعصابة، عن سبب خروجه تحت جنح الظلام وهو شيخ هرم، وهكذا تَحَوَّل في نظرهم من ضحية إلى جانٍ على نفسه.

حضر رجال الأمن بعد حين، بعد الفحص والمعاينة، بدل أن يطلبوا سيارة إسعاف طلبوا سيارة نقل الموتى، لأن «حمو» فارق الحياة، وتابعوا عمل البحث والتقصي في ظروف الجريمة.

"نانسي" والصورة

كانت «نانسي» من أشد المعارضين الألمان الذين يرفضون استقبال المهاجرين غير الشرعيين، الذين لا يملكون مؤهلات علمية أو مهنية، سواء كانوا من «أوكرانيا» أو أفريقيا أو من الدول العربية، رغم أنها ذات أصول عربية، وتحديدًا فهي من الطائفة المارونية بـ«لبنان».

تبلغ من العمر سبعًا وخمسين سنة، وتنتمي لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، ومن المعجبات بـ«أنغيلا ميركل»، ومن أحلامها أن تقود الحزب ذات يوم مثلها.

تشتغل مديرة تنفيذية بشركة عالمية للبناء والتعمير، هذه الشركة لها فروع ومقرات بأغلب دول العالم.

منذ الصغر وهي وحيدة، وحيدة والديها، وازدادت وحدتها لأنها بدون أصدقاء إلا كراسة ملازمة لها، لا تفارقها، تسجل فيها أخبارها وذكرياتها.

قضت مرحلة الطفولة بمدرسة الراهبات، ثم تابعت دراستها بمؤسسة داخلية؛ لذلك كان اهتمامها كلُّه منحصرًا في الدراسة والتفوق، طوال مشوارها الدراسي.

انطلقت كفرسة جامحة في البراري بعد تخرجها من الجامعة، واشتغالها بالوظيفة.. جمال.. قوام.. نبوغ.. شهادات.

تقدم كثير من زملائها الموظفين وغيرهم من الرجال للزواج بها، رفضتهم تباعًا، لكن حين التقت «موريس» عالم الآثار، وأحد المنقبين عن الكنوز في السفن التاريخية الغارقة في البحار والمحيطات، قوي البنية، ضخم الجثة، لا تربطه بالأناقة أي علاقة، سويسري الجنسية من أصول نمساوية، وافقت على الزواج منه دون تردد، حين التقت به صدفة بأحد مطارات العالم، لأنه كان يتقاسم معها عدة أفكار، ويحمل مثلها كتلة من الطموح والأحلام، رغم الفارق الكبير في السن بينهما، إذ يكبرها بتسع سنين، لكنه يشبهها في الطموح والأحلام والطباع.

رفضت الإنجاب رغم إلحاح زوجها «موريس» في البداية، طالبة منه الانتظار حتى تثبت ذاتها في العمل، وتفرض وجودها بالشركة.

ظلت تنتقل –حبًّا في العمل– من فرع إلى آخر لمتابعة سير العمل، ومن دولة إلى دولة لمراقبة المشاريع، طبعًا، طمعًا في الترقِّي في السلم الوظيفي.

الأوقات التي كانت تمضيها وهي تنتظر في المطارات موعد إقلاع الطائرة، والساعات التي كانت تقضيها داخل الطائرات؛ أكثر من الأيام التي تقضيها مع زوجها في البيت، تحت سقف واحد، إذ لم يكن لديها الوقت للاهتمام بزينتها والوقوف أمام المرآة بالساعات للتبرج واختيار الإكسسوارات المتناسقة مع ملابسها ككل النساء، بل كانت تكتفي بثوانٍ لضبط حالها وهندامها، ثم تنطلق!

ظلت الأيام تجري، وهي بدورها خلف أحلامها تجري.

أحلام تجر وراءها أحلاما، وطموح يقود إلى طموح، ونشوة النجاح تسكر دائمًا العقول بلا خمر، وتجعل صاحبه لا يشعر بالزمن.

الأعوام تمضي مهرولة، والسنوات تعبر مسرعة دون أن تنتبه «نانسي»، دون أن تشعر، دون أن تحس، دون أن تدري بكل ما يتغير فيها وحولها.

حين حققت كل أحلامها، وجلست لتتفرغ لذاتها، ولتستمتع بحياتها، وجدت الزمن قد سرق منها زهرة الشباب، وبويضات الإنجاب، وترك لها بقايا عمر لا ينفع لبداية جديدة.

«نانسي» اليوم تملك المال والجاه والسلطة مع الوحدة والعزلة بعد وفاة زوجها، في ظروف غامضة في أثناء إحدى المغامرات البحرية.

ذات ليلة جلست على الأريكة تتابع أخبار كأس العالم بقطر 22، وحيدة بشقتها الفاخرة بعد ذهاب مدبرة منزلها.

وسائق سيارتها، وبين الفينة والأخرى تنشغل عن أخبار التلفاز بهاتفها، وبجانبها كلبها «أليكس» وقد بلغ من العمر عتيًّا وأصبح قليل الحركة، ونادر التجاوب إلا برأسه وأحيانا بعينيه.

لقد أصبحت تتابع أخبار كأس العالم منذ الفضيحة التي قام بها منتخب بلدها، حين وضع اللاعبون أيديهم على أفواههم في أثناء التقاط الصورة احتجاجًا على عدم السماح لهم بوضع شارات «قوس قزح» (شعار المثليين)، وقد تحدثت كثيرًا مع أقرب المقربين منها لحساسية الموضوع؛ فهي كاثوليكية المذهب، وأغلب الشعب الألماني بروتستانتي متساهل في بعض السلوكيات، مثل: الشذوذ والإجهاض،

عبرت لهم عن الانهيار الأخلاقي الذي أصبح ينحدر إليه بلدها، وهي محاولة لتشويه صورته بدون فائدة، إذ لم تكن راضية عن منتخب بلدها الذي ترك التركيز على اللعب واهتم بالسياسة، فكانت النتيجة الإقصاء المبكر، لكن في المقابل كانت هناك طفلة عربية تصحو فجأة داخل «نانسي»، وتلح عليها بمتابعة أخبار المنتخب المغربي، وانتصاراته التي جعلت الشعوب العربية قاطبة تخرج للاحتفال في الشوارع والساحات بفوز «المغرب» فخر العرب، فكانت تتابع ذلك بنشوة وحنين للأصول.

وفي لحظة في أثناء عرض مجموعة من اللقطات عن أخبار كأس العالم قطر 22، ينهار الجبل أمام صورة، لا أحد يدري كيف تنهار «نانسي» أمام صورة! وهي التي تحدت الصعاب بلا تردد، وركبت الأهوال بلا خوف، وكانت تحمل لقب المرأة الحديدية لقوتها وصلابتها في العمل.

تنهار أمام صورة، مجرد صورة.. لمن تكون هذه الصورة؟!

صورة لاعب مغربي يراقص والدته فوق عشب الملعب، وهما في غاية السعادة، بعد تأهل المنتخب المغربي إلى نصف النهائي إثر انتصاره على «البرتغال».

ظلت تتأمل الصورة، صورة امرأة في سنها ترقص مع ابنها.

هذه الصورة، تذكرها بشيء ما.

هذه الصورة، تُحرك في أعماقها رغبة ما.

هذه الصورة، توقظ في نفسها حلمًا ما.

وقبل أن تسرح بعيدا بخيالها بحثا عن السبب، صرخت الصورة في وجهها بكل مشاعر الأمومة، فانطلقت دموعها متدفقة، ثم دخلت في حالة هيستيرية من البكاء والنحيب، واندمجت مع نفسها، طالما هي وحيدة في شقتها، فلن يرى أحد ضعفها ودموعها، ثم صرخت قائلة:

" حميمية الأسرة بين حضن الأبناء لا تقدر بثمن، والإحساس بالأمومة لا يباع في المزادات العلنية مثل اللوحات والتحف.

أخرجت دفتر مذكراتها من حقيبة يد موضوعة بجانبها، ودون أن تنظر إلى كلبها أو تداعبه بيدها كعادتها، تناولت القلم، بلا مقدمات أو تفكير.. شرعت تكتب، في الصفحة الأخيرة من الجزء الخامس في دفتر المذكرات:

وأنا وحيدة بشقتي كعادتي، وفي لحظات ضعفي، أفشي لك يا «موريس» بسرّي مع صورة.

آه، لو ترى يا «موريس»، ماذا فعلت هذه الصورة بي!

وربما بكل النساء المتحررات، اللواتي كن يرفضن الإنجاب خوفًا على قوامهن، على رشاقتهن، على جمالهن، على مستقبل وظيفتهن، يعشن اليوم وحيدات، مثلي.

آه، لو تدري يا «موريس»، ماذا حركت هذه الصورة في أعماق نفسي! حيث جعلت الطفل في أحشائي وأحشائهن يبكي، وبكين معه في صمت، وبحرقة، تلفُّنا الوحدة والضياع.

آه، لو تعرف يا رفيق دربي، ماذا أحيت هذه الصورة في نفسيتي من أحلام الأمومة التي تخلصت منها بأنانية، ونرجسية أيام الفتوة والشباب! كم حذرتني يا «موريس»، من هذه اللحظة! لكن شيطان الغرور كان يركبني، يغريني، ويزين لي نجاحات أعمالي.

واليوم ها أنا أجترُّ الذكريات وحدي، بدونك، حتى كلبنا «أليكس» ما عاد يكسر جدار الصمت والجمود بحركاته داخل الشقة، لقد شاخ قبلي.

آه، يا «موريس»، ليتك معي تخفف حسرتي، تمسح دمعتي، تقتل هذه الوحدة التي تخنقني، تجيبني عن أسئلتي، ولو من باب المواساة.

ما قيمة الثراء مع الوحدة أمام لحظة حنان؟!

وما فائدة المجد مع العزلة أمام دفء الأسرة؟!

وما الجدوى من السلطة إذا كانت بدون مشاعر، بدون أحاسيس، بدون ذرية تنط حولك، وتتعلق بعنقك من أبناء وأحفاد؟!

آه، يا «موريس»، لو تدري كم غرزت هذه الصورة من سكاكين في قلبي! لقد تمنيت لو كنتُ أمًّا، ولو للحظات، حتى أسمع كلمة «ماما»، بدل هذا المصير المجهول الذي ينتظرني مع الوحدة والعزلة داخل شقة كئيبة بضوء خافت، أو سرير بارد بدار العجزة، أو غرفة موحشة بدار المسنين.

آه، لو تدري يا عالم الآثار، كم قلَّبَتْ هذه الصورة من مواجع، لنساء مثلي، وحيدات في سني، في كل بقاع العالم، وقد أصبحن يتابعن مقابلات «المغرب» في كرة القدم، ليس حبًّا في اللعب والفرجة، ولكن لمشاهدة أمهات بسحنات عربية وملامح مغربية يعانقن أبناءهن بحبٍّ، بفخر، باعتزاز، ويُشهدن العالم على مجهودهن، على حُسن تربيتهن، بلا جاهٍ، ولا مال، ولا سلطة.

لعل الكثيرات ممن يعشن وضعي، يتابعن مشاهدة هؤلاء الأبناء وهم يقبلون رؤوس أمهاتهن بعد نهاية كل مقابلة، اعترافًا لهن بما قدمن من خدمات لأسرهن.

وهن متشبثات بهوية الأجداد، وعادات بلدهن الأصلي ولهجاته، رغم قساوة الغربة، وسوط الاندماج.

وسطوة الحرية في العادات والتقاليد.

آه، لو تعرف كم بعثرت هذه الصورة من أوراق، ومشاعر، وطموحات! فكل موظفة ضحَّت بالزواج من أجل الاستقلالية، تعاني مثلي.

وكل فنانة ضحت بالذرية من أجل الشهرة، تقاسي مثلي.

وكل نجمة من نجمات الفن تنازلت عن المستقبل الأسري وإحساس الأمومة من أجل المتعة اللحظية، تشعر بخيبتي.

أما المكافحات اللواتي حُرمْن غصبًا من الزواج والأمومة لأسباب خارجة عن إرادتهن، كالمرض أو الجنون أو الإعاقة أو سوء الحظ أو قسوة القدر، فلا خوف عليهن، لأن الله سيتولاهن في ملكوته برحمته، ما دامت لا يد لهن في ذلك.

ما ظننت يا «موريس» أن صورة، مجرد صورة، ستجعلني أعيد شريط حياتي في لحظات، وأنا قابعة في مكاني، جامدة مصدومة أمامها.

أتصدق يا «موريس» أني لم أجد جوابًا، حين صرخت الصورة في وجهي قائلة لي:

كم أنتِ غبية!

حشرتِ نفسك في زاوية ضيقة ومظلمة مع الوحدة والندم، لا داعي للندم، لقد فات الأوان!

يكفي هذا اليوم يا «موريس».

سجلت تاريخ التدوينة، يوم السبت 10 دجنبر 2022 قبيل منتصف الليل.

أغلقت دفتر المذكرات وأعادته إلى حقيبة يد رمادية موضوعة بجانبها على الأريكة.

وقررت ألا تنظر إلى الصورة ثانية، وألا تتأمل هذا المشهد، بل ستغير حياتها وحالها رأسًا على عقب.

وأول قرار اتخذته في تلك اللحظة، أن تأخذ إجازة وتسافر.

تسافر إلى «المغرب»، لعلها تجد هناك ما تفتقده هنا من حنان ودفء وحضن لأسرة تحتويها في رحلتها، وربما تغير دينها، إذا كان هذا الدين يجلب كل هذه السعادة والطمأنينة والسلام الداخلي، أخذت هاتفها وشرعت تبحث في جوجل عن السياحة والأماكن السياحية في «المغرب»، وعن هواتف وكالات الأسفار السياحية.

حالة ارتياب

ذات ليلة من ليالي نهاية الأسبوع الصيفية، سَمِعَتْ جلبةً بباب الشقة، فعَلِمَتْ أن زوجَها قد عاد مخمورًا كعادته.. فرَّتْ هاربةً إلى غرفة الأطفال، متظاهرةً بالنوم هناك، وهي تتقلب في الفراش بجانب ابنتها «سلوى» ذات السنوات الخمس، سمعت قهقهتها، ابتسمت معتقدة أن نفورها، وغضبها منه، جعل أمورًا غريبة تتهيأ لها! استمرت الوشوشة بغرفة نومها، ثم انطلقت ضحكتها عالية، اعتدلت في جلستها قائلة:

«هذه ضحكتي، وأعرفها من آلاف الضحكات».

خرجت من الغرفة متسللة على رؤوس أصابعها تحت جنح الظلام، حتى اقتربت من غرفة نومها، واضعة أذنها على باب الغرفة، سمعت، تأكدت، تيقنت، أنه سجل صوتها ذات مرة دون شك! لم تفتح الباب مخافة أن يغتصبها، فكثيرًا ما يحلو له أخذ حقوقه الشرعية بالقوة وبالعنف، وهو في حالة سكر.. عادت إلى غرفة ابنتيها منتظرة إلى أن وصل صوت شخيره حيث هي.. فتحت باب غرفة نومها ببطء،

فانبعثت منه روائح خمرِهِ الكريهة التي جعلتها تنفر منه، وتكره النوم بجانبه.. سحبت هاتفه لتمحو ذلك التسجيل، وهي تبحث وتتصفح، فوجئت بالعديد من الفيديوهات لها، وهي في المطبخ، وهي في الحمام، وهما في غرفة النوم منغمسين معًا في علاقة حميمية! وضعت كفَّ يدها على فمها المفتوح مصدومة، ارتبكت، اضطربت، بدأت تفكر ماذا تفعل!!

لم يكن أمامها إلا أن تفرغ محتويات تلك الفيديوهات في هاتفها.. لم تنم تلك الليلة، آلاف الأفكار تجول بفكرها، وآلاف الاحتمالات تخطر ببالها.

في الصباح عند خروجه إلى العمل بعدما جهزت له وجبة الفطور، أخذت جولة في البيت تبحث عن الأجهزة، وهي في حالة هيستيرية، لكنها لم تعثر على أي شيء.

جلست تفكر وتدرس الموضوع من كل زواياه، متسائلة مع نفسها: لماذا فعل ذلك؟! وما الغاية من ذلك؟!

قررت أن تفاتحه في الموضوع مساءً قبل أن تبلغ أهلها به.

استقبلته عند عودته بوابل من الأسئلة، لم ينفعل، لم يتوتر، بمنتهى الهدوء، اعترف لها تفصيليًّا، قائلًا لها:

«هذا بيتي، وهذا حقي، بدأت أشك فيك، منذ نفورك مني.. فوضعت كاميرات لأراقب بيتي في غيابي، ولأعرف ماذا يقع! وماذا تفعلين في غيابي!

نظر إليها مبتسمًا ابتسامةً مليئة بالسخرية، ثم واصل كلامه:

«ما دمتِ واثقة من نفسك، ولا تقومين بسلوكات مشينة، فلماذا أنتِ غاضبة؟ ولماذا متوترة ما دامت أمورك سليمة؟ لا أفهم لِمَ كل هذا الغضب؟!

طلبت منه إزالة هذه الأجهزة، بل توسلت إليه ألَّا يسعى إلى تدمير بيتهما، وتشريد أطفالهما بسبب هذه الأجهزة.

رفض وأصر على إبقاء الكاميرات لحماية بيته، وابنتيه، وممتلكاته، وهي جزء من تلك الممتلكات.

حين تأكدت أن لا أمل في إقناعه، جمعت أغراضها، وأخذت ابنتيها معها متجهة إلى بيت أسرتها.

كل المحاولات التي قامت بها الأسرتان باءت بالفشل، فتقدمت بطلب الطلاق، وبعد عدة جلسات ومواجهات، رفضت المحكمة الطلاق، لعدم قناعتها بكفاية الأدلة، ولتمسُّك الزوج بزوجه، لكنها رفضت العودة معه إلى بيت الزوجية.

استغل انتصاره، ورفع عليها دعوة الرجوع إلى بيت الطاعة.

في إحدى الجلسات استدرجته إلى زقاق يقع خلف المحكمة، هناك سيجد أخويها وخالها وصديقًا لهم في انتظاره، فانهالوا عليه بالضرب المبرح حتى أُغمي عليه، وجردوه من كل ما لديه من أوراق ووثائق ما عدا الهاتف، وفروا هاربين.

عادوا إلى بيوتهم ينتظرون رجال الأمن، وهم متفقون على الإنكار، وعلى اتهامه بأنها شكاية كيدية.

«مروان» لم يتقدم بأي شكاية، بل اختفى، حتى الجلسة الموالية في المحكمة لم يحضر لها، اعتبروا ذلك انتصارًا لهم، معتقدين أنه لن يقترب ثانية، فاتفقوا إذا عاد سيرغمونه على الطلاق بالقوة.

ذات مساء عاد أخوها إلى البيت مهرولًا، غاضبًا، ساخطًا، لقد شاهد فيديو في «الواتس آب» منقولًا عن قناة إباحية لأخته، وهي

تمارس علاقة حميمية مع رجل، أغلب الظن أنه زوجها، لأن صورة وجهه لم تكن مكشوفة بوضوح في الفيديو.. بعد نقل الفيديو إلى هاتفها لتتأكد من صورة زوجها، انتقلا على وجه السرعة متجهين إلى مركز رجال الأمن، لتقديم شكاية والتبليغ عنه.

باشرت فرقة الشرطة القضائية عملها بالبحث عنه، انتقلوا إلى مقر سكناه، فأكد شهود من الجيران، أنه لم يزر بيته منذ مدة طويلة.. انتقلوا إلى مقر عمله، فأكَّد لهم رئيس مطبخ المطعم الذي يشتغل فيه، أنه لم يلتحق بعمله منذ مدة طويلة.. فنشر رجال الأمن رسالة بحث بكل مراكز أمن التراب الوطني.

أعاد رجال الأمن استدعاء «هدى» لتعميق البحث معها حول سر اختفائه، وحول التفاصيل المريبة في القضية، لعلهم يتوصلون إلى نقط يهتدون بها.

فُتح المحضر في مكتب المحقق بوجود والدتها، لأن ظروفها الصحية لم تكن على ما يرام، وتم التركيز على الشك، سائلًا إياها في افتتاح المحضر:

«ما اسمك؟ سنك؟ ومهنتك؟»

أجابت بملل من هذا السؤال: اسمي: «هدى البراني»، السن: تسع وعشرون سنة، ربَّة بيت وأم لطفلتين، غادرت المدرسة في مرحلة الإعدادي».

بعد كتابة ذلك، أضاف:

«لماذا كان يشك فيك؟!»

بسرعة أجابت دون تفكير أو تردد:

«لا أدري! لأنه لا يوجد أي شخص في حياتي حتى يشك، ولا أغادر البيت بدون إذنه حتى يشك».

اقترب منها قليلًا سائلًا:

«هل كانت بينكما قصة حب وعلاقة من نوع ما قبل الزواج؟!»

تدخلت والدتها قائلة:

«لا! أبدًا! كان زواجًا تقليديًّا؛ رأتها والدته ترقص في أحد الأعراس، فأُعجبت بها، وطلبتها زوجة لابنها «مروان».. وافقتُ، وابنتي «هدى» لم تعترض عند موافقتي».

وجه المحقِّقُ السؤال لـ«هدى»:

«هل صحيح ما قالته والدتك؟»

أجابت:

«نعم، وطيلة شهر العسل وهو يطلب مني كل مساء الرقص على أنغام الموسيقى، وكان سعيدًا بي، وكنت سعيدة بطلباته، واستمرت حياتنا في تفاهم تام.. لكن بعد إنجاب ابنتي الثانية «سلوى»، وعدم إنجابي ولد ذكر، تبدلت مشاعره نحوي، وتغيرت أحوالنا مع ارتفاع المعيشة، وزيادة مصاريف البنتين.. تعرف على رفاق السوء، فالتفوا حوله، وأصبح يتعاطى الخمر والمخدرات، وكلما عاد إلى البيت مخمورًا والروائح الكريهة منبعثة من فمه ومن ملابسه، أشعر بالتقزز وهو يطلب حقوقه الشرعية، وكلما شعرتُ بالاختناق، دفعتُه بعيدًا وهربتُ إلى غرفة الأولاد وأغلقتُ الباب بالمفتاح، وتركتُ له غرفة النوم، فأصبحتُ كلما رأيته سكرانَ، أخلق مشكلةً، وأحتمي بغرفة الأولاد».

قاطعها المحقق:

«ألم تفاتحيه بالموضوع؟!»

أجابت غاضبة دون أن تنظر إليه:

«وهو صاحٍ لا يهتم بكلامي، وهو مخمور لا يهتم إلا بغرائزه، ولا تحلو له الممارسة إلا وهو في حالة سكر طافح».

عند نهاية المحضر، كتب في أسفله ملحوظة، ستستمر الزوجة تحت المراقبة في انتظار ظهور عناصر جديدة تفيد التحقيق، أو تشغيل هاتفه لتحديد مكانه، أو تجديد بطاقته الوطنية.

انتشرت الإشاعات حول «مروان»، البعض يقول إنه غادر البلد إلى «أوكرانيا» بجواز سفر مزوَّر، والبعض يقول عنه إنه تسلل إلى أوروبا عن طريق قوارب الموت.

بعد تسعة أشهر، تمكن مالك الشقة من الحصول على حكم قضائي بإفراغها، فاستدعاها لتتسلم أثاث البيت باعتبارها زوجة المختفي، وتمكنت هي الأخرى من الحصول على ورقة الطلاق غيابيًّا.

وحين بدأت تستنشق نسمات الحرية، وتستعيد عافيتها، فإذا بالفيديوهات تنهال على القنوات الإباحية، ومنها إلى «الواتس آب»، عديدة ومتنوعة، بطلتها «هدى» التي قررت تحت الضغط الهروب والرحيل إلى إحدى المدن السياحية، واختفت، كما اختفى زوجها،

وبقيت الطفلتان تحت كفالة جدتهما، وحدهما من سيدفعان ثمن التكلفة مضاعفًا من سمعتهما، من حياتهما، ومن مستقبلهما!

فرحة "عماد" لا تكتمل

ينتمي «عماد» لأسرة تعيش تحت عتبة الفقر، عاطل عن العمل، بل «معطَّل» كما يسمي نفسه، ولم تشفع له شواهده الجامعية، لطيف المعشر ورومانسي المشاعر، رغم أنه وحيد بلا أنيس.

اعتاد في كل عيد حب أن يشتري وردة، وفي كل عيد عمال أن يحمل لافتة.

لم يمل، ولم ييأس، بل ظلَّ متفائلًا يفعل ذلك في كل عيد، وهو واعٍ بحاله، إذْ ليست في قلبه أميرة محددة، ولا في حياته حبيبة معينة، يهديها تلك الوردة التي تظل بين يديه طوال النهار، حتى تذبل، وتذبل معها نفسيته!

لقد تَعَوّدَ أن يجلس تحت ظل شجرة العطالة في العيدَيْنِ، يتساءل مع نفسه في صمت، كالأبكم الذي لا صوت له، أو كالمُقْعَد الذي لا فائدة من محاولته الوقوف أو المشي، يبكي في صمت، ويتألم بلا صوت، وهو

يشاهد ويتابع العشاق وهم في طريقهم سائرون، كل ثُنائيٍّ منسجم في المشي على جنبات الشواطئ وفوق الصخور، وأكثر انسجامًا في الحدائق العمومية، في أثناء الوشوشة بكلمات الغرام الملتهبة، كما يشاهد ويتابع العمال كل صباح وهم في طريقهم إلى عملهم، كي يحسِّنوا وضعيتهم، ويبنوا مستقبل أولادهم، وهو قابع في مكانه أشبه بمواطن ذهب ليشارك في عملية التصويت، لكنهم سرقوا صوته داخل القاعة، وتركوه على الهامش، ينتظر معجزة تعيد إليه كرامته وإنسانيته.

ما أقسى الحياة على المرء الذي يعيش حياته بلا حب وبلا عمل، ويقضي أيامه على الهامش!

عاش «عماد» مراهقته متألمًا من عدم إحساسه بمشاعر الحب المتبادلة، ومن خجله المفرط، وظروفه القاهرة، ومع ذلك ظل متفائلًا، ينتظر حبيبةً في علم الغيب لتعيد الدفء إلى مشاعره، والبهجة إلى حياته.. لقد كان يقاتل باستماتة حتى لا تموت الأشياء الجميلة التي بداخله، مثل: الابتسامة والحب والأمل، فيموت بموتها، وهو حي يرزق، ويصبح تاريخ وفاته مجازًا لا علاقة له بتاريخ دفنه حقيقة، وبينهما شهور وأعوام.

أما في فاتح ماي، عيد العمال، فيشارك فيه وهو لا يزاول عملًا، ولا يستطعم عيدًا، لذلك تراه يحمل لافتة، يطلب من خلالها عملًا قارًّا، ويمضي العيد ويظل عاطلًا بلا عمل، ومُهْمَلًا بلا قيمة، بجانب لافتته التي انتهت مهمَّتُها، ولم يعد لها داع مثله.

لا نصيب له في عيد الحب، ولا منصب له في عيد العمال سوى الحسرة وخيبة الأمل.

كيف يشتري الحب، والمشاعر لا تباع ولا تشترى؟!

كيف يفتح بيتًا، وهو مفلس الجيب وعاطل عن العمل؟!

كيف يعيش بين الناس، وهو لا يرى له مكانًا بينهم رغم حصوله على الماستر؟!

ما أكثر اللطمات والصفعات التي تلقاها في شبابه، وأيام دراسته، وسبَّبَتْ له أوجاعًا قلبية لازمته بقية حياته، من صبايا وفتيات، خرَّ صريعًا في ساحة غرامهن، فقط من نظرة خاطفة أو ابتسامة عابرة.. أحبهن بصدق، لكنه حب من طرف واحد، وما زال وحيدًا بلا حب وبلا عمل، وسجينًا في سجن مفتوح بلا باب ولا أسوار.

ليس في سمائه غيمة ككل العشاق، ولا في حقله سنبلة ككل العمال، ولا في حياته بارقة أمل، ومع ذلك كل صباح ينتظر من صباحه الجديد أخبارًا عن وظيفة أو عمل، وينتظر من يومه الجديد بوادر علاقة لرفيقة درب، أو شريكة حياة، تنقده من ضوء الفراغ نهارًا وظلمة الجحيم ليلًا.

ظل على حاله سنوات إلى أن جاء الفرج، وشارك في إحدى المباريات التي لا تشترط حدًّا للسن، نجح في الامتحان الكتابي، ثم الشفوي، ليجد نفسه، في الأخير، قد أصبح أستاذًا متعاقدًا، يجمعه بالوظيفة عقد، لكنه عقد ملغَّم، هو أوهن من بيت العنكبوت، قد تلغيه مكالمة هاتفية أو رسالة نصية، ويربطه بالحياة أمل، لكنه أمل مغشوش! أمل وهمي، يوهمه بأنه موظف، لكن دون أن ينتمي للوظيفة العمومية.

بالأمس كانوا يقولون له: كيف تحب وأنت عاطل عن العمل؟

واليوم يقولون له: كيف تتزوج ووضعك الوظيفي هشٌّ؟

وكأنهم لا يعلمون أنه مُكْرَه، مُرْغَم، مُضْطَر، لا بَطَل حين قَبِلَ بهذه الوظيفة، وبتلك الشروط.

وها هو اليوم يجد نفسه في واقعه الجديد، مُكْرَهًا، مُرْغَمًا، ومُضطرًّا، للقبول بالزوجة التي ترضى بوضعه الهش، ومستقبله الغامض، وباءت

كل محاولات والدته بفشل ذريع، وهي تبحث له عن عروس، ترضى الإقامة والعيش معه في البادية.

حاولت والدة «عماد» تزويجه بطريقتها من إحدى معارفها حتى تكون العروس طوع أمرها.. ظل «عماد» يعتذر في كل مرة، ويتهرب من اختياراتها بألف عذر؛ فهو في حاجة إلى إعجاب متبادَل من أول نظرة، وإلى قصة حب عنيفة، تهز كيانه هزًّا قبل الخطوبة، وإلى انسجام تام في الثقافة والمشاعر بعد الزواج.

ظل على حاله إلى أن ابتسم له الحظ، إذ أُعجب بزميلة له في الوحدة المدرسية التي يشتغل بها.. بدأ طيفها يتسلل إلى جوانحه، يغمر مشاعره.. لأول مرة يشعر بآدميته وهو يرى شعورًا متبادَلًا عبر نظرات وابتسامات.. لم يتردد ولو لحظة؛ تقدم لخطبتها، وبعد مدة وجيزة تزوَّجا، ولأن ظروف الجائحة (فيروس «كورونا»، كوفيد – 19) تمنع إقامة الأعراس، نظَّما حفلًا بسيطًا بلا بهرجة ولا تكاليف، يضم العائلتين، ودخلا القفص الذهبي.

أقاما بالسكن الوظيفي بوحدتهما المدرسية، ينعمان بالحياة الزوجية، في سكن قروي متآكل جدرانه.

ذات مساء وهو بساحة المؤسسة وحيدًا يتأمل وضعه، ويستعيد شريط حياته، يحاول أن يكون منصفًا مع نفسه بين الأشياء السيئة التي عاشها في حياته، والأشياء الجميلة التي تحققت أخيرًا، فأدرك منتشيًا، أنه أول مرة في حياته يجمع بين وظيفة وزوجة وسكن خاصٍّ بهما، ولا ينقصهما إلا شيء واحد؛ فاتح زوجته الأستاذة «لمياء» في موضوع الإنجاب.. ابتسمت، فضحكت بصوت عالٍ ومتواصل، وهو ينظر إليها باستغراب! وقالت له:

منذ أسبوع وأنا في شك من أمري، وأفكر كيف أفاتحك في الموضوع، اليوم تأكدت.. أبشر يا «عماد»؛ فأنا حامل.

قفز نحوها وضمها إلى صدره صائحًا:

كم أنت كريم يا رب!!

وضعت يدها على بطنها، وقالت له:

مسكين هذا الولد، سيولد في البادية، وكلانا عاش وتربَّى في المدينة.

قاطعها مبتهجًا:

بل قولي سيكون محظوظًا، لأنه سيولد في جو صحي، مستنشقًا هواءً نقيًّا.

متحسرة بصوت منخفض حزين، قالت له:

كنت أتمنى أن يُولد في شقة مملوكة لنا وسط المدينة، وله غرفة خاصة مزينة ومليئة باللعب والألعاب.

بإيمان وتفاؤل كبيرين، ناشدها:

الفرج قريب –بإذن الله تعالى–، قولي يا رب، فقط قولي يا رب، وستُفْرَج.

متسائلة استفسرته:

كيف؟ ومركبنا من ورق، وأمواج المحيط عاتية، والضباب الكثيف يحجب عنا رؤية مستقبلنا!

قطب حاجبيْه وتكهربتْ أجواؤه، وهو يشم من حروف كلماتها رائحة غير عطرة، لم تعجبه، ويسمع من فحوى تعابيرها نغمات أغنية نشاز، لم ترقه، فتعكّر مزاجه.

دائمًا فرحته لا تكتمل، وأحلامه لا تتم، منذ كان تلميذًا في الابتدائي.

ميراث من سراب

كان للفقيه «الغليمي» بـ«سيدي ازوين» نواحي «مراكش» حيث يقيم، أخت لا يدري هل هي من أهل الإنس أم من أهل الجن! إذْ تبنت سوء أفعالهما، وجمعت من الصغائر والكبائر في جعبتها، حتى كوَّنت ثروة لا أول لها ولا آخر.

كانت علاقة الفقيه «الغليمي» بأخته تُعَدُّ لغزًا لأبنائه، إذ لا يرون والدهم يجالسها في الأعراس، ولا يرافقها في الطريق في أثناء المآثم، ولا يسامرها في المواسم والحفلات.. إن دعته إلى وليمة، لا يلبي الدعوة، ولا يأكل طعامها، دون أن تكون بينهما عداوة أو خصام.. وصِلة الرحم بينهما عبر الهاتف في المناسبات والأعياد متواصلة، وعادية.

«زليخة» أخت «الغليمي» كما كان لها نصيب من التعليم، كان لها نصيب من الجمال، إذ حصلت على الإجازة في العلوم الاقتصادية في بداية الثمانينيات، واشتغلت على الفور بمديرية الضرائب والتحصيل الجمركي، وتقلدت عدة مناصب بالمناطق الحدودية التي اشتغلت فيها،

ثم استقالت من وظيفتها، وأسست بمفردها شركة للاستيراد والتصدير في جميع المواد والأجهزة الإلكترونية، وتلاعبت في الصفقات المعفاة من الجمارك حسب اتفاقية «المغرب» مع بعض الدول، إلى أن كوَّنت ثروة تُقدَّر بالملايين.

يومَ أحسَّ الفقيه «الغليمي» بنهايته، وهو على فراش الموت يحتضر، استدعى أبناءه، وظل يحاضرهم حول الحلال وقيمته المباركة، مهما كان قليلًا، ثم تلا عليهم وصيته الأخيرة:

سأموت والموت حق، وسيأتي زمان وتموت فيه عمتكم «زليخة».. لقد كانت أرضًا بورًا لا خلفة لها، رغم أنها من طينتنا، فإنها اختطفت زوجًا من بين أحضان زوجته وأولاده؛ تزوجت به دون بهرجة ولا خطبة ولا عرس ولا وليمة، وخصصت له راتبًا شهريًّا حتى يظل تحت جناحيها عبدًا مستعبَدًا، لقد تزوجت ما دونها فعاشت في الدونية رغم أموالها، بل استوطنت في مرتبة مبهمة لا هي مع الأغنياء فتزهو، ولا هي مع الفقراء فتشكو.

استعانت «زليخة» بخبرتها أيام كانت موظفة بمصلحة الجمارك على نقط الحدود، فتاجرت في السلع المحجوزة بإدارة الجمارك بعد شرائها، وتاجرت في العملة عند تداولها، وأقرضت المقاولين الصغار بالرِّبا.

كما مارست السحر في لحظات ضعفها، وتاجرت في الأعراض في قمة جبروتها، مشت بالنميمة بين الأقارب واغتابتهم وحولت بعضهم إلى عقارب، وتلونت بألوان الحرباء لتُرضي الغرباء وتحظى بإعجابهم.. اتخذت الدين وسيلةً، والإحسان العمومي ستارًا لتُخفي خلفه فضائحها.. تبنّت ابنةً لقيطةً لا أصل لها، واشترتها رضيعة من إحدى الجمعيات التي تتاجر في الأعضاء البشرية، ولجأت إلى التزوير في الأوراق الرسمية الثبوتية، لتوهم العالم أنها ابنتها.. فلا تغرنكم المسبحة التي في اليد، ولا السجّادة التي تحت الإبط، ولا الدينار المرسوم فوق الجبين، ولا التقوى وهي تحرك لسانها ما بين البسملة والحولقة، ولا عدد الزيارات للديار المقدسة بين حج وعمرة، لقد جمعت بين الكبائر والصغائر، ولم تترك لله حقه، فلم يُبْقِ لها بين المُحقِّين من المتقين مكانًا.

إذا متُّ، فلا تبلغوها بوفاتي في الحين، حتى لا أسمع وقع خطواتها حول مرقدي.. وإذا ماتت فلا تقربوا مالها ولا ترثوه؛ إنه جمرة من نار جهنم، من يمسكْ تلك الجمرة، كان من المحترقين، وبئس المصير! فلا تقربوا مالها، ولا ابنتها بالتبني؛ إنهما لعنة من السماء، وكل أملاكها أقفاص من جحيم، من يدخلْها، يعشْ تعيسًا، ولا يعرف للراحة طريقًا.. لذلك احذروا من لهيب نارِه الذي يغر بالدفء، ويحرق أصحابَه.

امكثوا عن الإغراء بعيدًا، ومن بعيد تنازلوا عن ميراثكم في تلك الثروة، إن تركت لكم نصيبًا، فهو حطب جهنم، وسراب الدنيا، فلا تقربوه، فتصبحوا لما ورثتم نادمين.

فمال الحرام مثل ماء البحر، كلما شربت منه ازددت عطشًا، ولا يرثه إلا ابن الحرام، حتى يختلط فيه دم الحرام بلحم الحرام.. فالحلال بيّن، والحرام بيّن، وأموال عمتكم «زليخة» اختلطت فيها كل الشبهات التي تقف بين الحلال والحرام.

كانت كلماته متقطعة، وكان يبذل مجهودًا كبيرًا ليواصل الحديث.. طلب منه ابنه البكر أن يتوقف عن الكلام، فاقترب منه ليقبل رأسه، ثم التفت بسرعة إلى إخوته قائلًا:

إنه محموم، فقط الحمّى، أكيد تأثير الحمّى جعله يتوه في الكلام، ويطيل في الحديث، إنه لا يحتضر، بل فقط أصابته الجائحة التي حلت بالبلد، إنه فيروس «دلتا» المتحور، إحدى سلالات «كورونا» بلا شك! خرج مسرعًا لاستدعاء الطبيب، وحين تعذّر عليه ذلك، اتصل بسيارة الإسعاف، ولما تأخرت، اتجه إلى الصيدلية لشراء الأدوية.

بعد أسبوع شُفي «الغليمي» من الحمّى، لكن السر انتشر في الهواء كالأوكسجين، والوصية أصبحت مكتوبة في عيون أبنائه بكل اللغات، لم تتحمل أخته «زليخة» تسرب أخبارها، وتفشي أسرارها، فتعرضت لوعكة صحية، لم تنج منها، وماتت بعد بضعة أشهر بعد الحدث، لكن الأسوأ أنهم استخرجوا جثتها من القبر مرتين؛ في المرة الأولى للتأكد من أسباب الوفاة بعد الشكوك التي حامت حول مماتها، وفي المرة الثانية لإجراء تحاليل الحمض النووي DNA لمعرفة: هل كانت ابنتها «آية» من صلبها! أم فقط ابنتها بالتبني، كما يؤكد بعض المعترضين!

مسكينة «زليخة»؛ تُبعث من القبر مرتين قبل يوم البعث.

مسكينة «زليخة»؛ لم تعش حياتها في سلام، ولم ترقد في قبرها بسلام.

أما الفقيه «الغليمي» فقد انكمش على نفسه، واعتزل الناس، وغاص معتكفًا بين سواري مسجد الزاوية مسبِّحًا، مستغفرًا، مردِّدًا ما بين الفينة والأخرى، بل وفي كل اللحظات، قائلًا:

«إن السرَّ كنز ثمين ما دام في صدرك مدفونًا، لكن إذا خرج تحوّل إلى خناجرَ تطعن الظهر، ونِبال تصيب الصدر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!»

ويختم لازمته في القول بهذا الدعاء:

«اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه!»

"توفيق" وغربة الذات

«توفيق» شاب مغربي لا يربطه باسمه أي علاقة؛ فهو لم يُوَفَّقْ في دراسته، وكان من ضحايا الهدر المدرسي.. ولم يُوَفَّقْ في غربته، وكان نصيبه الطرد من أرض المهجر، ولم ينجح في زواجه الأول، ولا الثاني، ولم يُفْلِحْ في حياته أبدًا.

أدرك في زواجه الأول في أثناء العرس أن ذاك الزواج لن يستمر طويلًا، حين اختلفت والدته مع حماته حول الحبل الذي كان يجر به البقرة، كلتاهما اعتبرته من حقها، وساندت العروس والدتها، واضطُر هو إلى مساندة والدته، واستمر الخلاف طوال شهر العسل، إلى أن تقدمت زوجته بطلب الطلاق للشقاق.

أما زواجه الثاني الذي تدمر ودمر معه حياته ومستقبله بأرض المهجر، فتلك حكاية بلا نهاية!

حين فشل زواجه الأول، ملّ الوحدة والفشل والعيش بالمغرب، فقرر الهجرة، حيث تسلل إلى «بريطانيا» أيام كان الدخول بدون تأشيرة؛ يكفي أن تحمل معك جواز سفر.. تسكع طويلا إلى أن تعرف على مواطنة بريطانية ممرضة بالمستشفى العام، فزوجته نفسها، وتزوج بها.. أثمر زواجهما عن طفل سمياه «جوزيل»، حينئذ تعرف على جماعة إسلامية أثروا عليه، وجعلوه على هيئة غريبة؛ لحية طويلة، وجلباب قصير، وأغلب الكلام عن الدين ونشر الدعوة.

ذات صباح غافَل زوجته، وسرق طفله، وقاده رفقة جماعته إلى طبيب باكستاني مسلم، أجرى للطفل عملية الختان، وكان سعيدًا بنجاح العملية، لكن الزوجة حين علمت بالأمر أقامت الدنيا ولم تقعدها، واعتبرته اعتداءً بشعًا على حياة طفلها وعلى حقوقه، وأقامت دعوة ضد زوجها وجماعته.

علم «توفيق» من خلال محامي الجماعة أن الأمن يتعقبه لمحاكمته وترحيله إلى بلده «المغرب»، ففرَّ هاربًا إلى «فرنسا»، ومنها إلى «إيطاليا»، مخلِّفًا وراءَه كلَّ ما بناه خلال عدة سنوات، تاركًا ابنه، وحاجياته، وآماله، ومستقبله.

في دولة «إيطاليا» لم يجد عملًا ولا سكنًا ولا ترحيبًا، وهو لا يملك أوراق الإقامة بها، مُطَارَدًا من طرف الإنتربول، فآوته الجماعة بأحد مساجدها، على أن يقوم بمهمة الأذان وتنظيف المسجد والإقامة فيه مقابل الطعام واللباس، وهكذا تحوّل من يد عليا إلى يد سفلى، تتلقى الإعانة وتعيش على الصدقات.

وعاش ضعيفًا، متخفيًا بين جدران المسجد، وهو يعلم أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وها قد أصبح فقيرًا وضعيفًا إلى حدِّ التسول من المصلين.

واستمر على هذا الوضع ثلاث سنوات، مقيمًا بالمسجد، يقضي وقته بين الأذان والصلاة، وبين المصحف والسواك وتنظيف المسجد، خارج أوقات الصلاة.

ذات صباح نفد صبره، وتلاشت صلابته، ولم يجد حوله كبرياءه ولا كرامته، فانتفض مسرعًا وسلَّم نفسه لرجال الأمن، الذين قاموا بنقله إلى «بريطانيا»، وبعد المحاكمة تم ترحيله إلى «المغرب» على أن تُتابَع قضيته في بلده وعبر محاميه.

وقف «توفيق» يطل من نافذة بيتهم بمدينة «بني ملال»، وهو يرى جبالًا بعيدة مكسوة قممها بالثلوج.. كان يطل وفي مقلتيه حزن، وبين طيات روحه عبء النحس الذي يطارده؛ كلما بنى حُلمًا تهاوى، وكلما أسس مشروعًا فشل، وانتهى به الأمر أجيرًا بمعصرة لزيت الزيتون، بعد أن يئس من القضية التي ظل يترافع فيها لعدة سنوات، ويحلم بالفوز فيها على زوجته وعلى قوانين «بريطانيا»، وعودة ابنه «جوزيل» إلى حضنه، والذي كان يسميه «أبا الجوزاء».

قرر «توفيق» أن يتزوج للمرة الثالثة، والكل يقول له:

«الزيجة الثالثة ستكون ثابتة –إن شاء الله–».

لكن الزوجة التي تتوافق مع أحلامه، ولا تقلُّ جمالًا عن زوجته البريطانية، كانت لها شروط؛ سكن مستقلّ، يتوفر على «الواي فاي»، والمهر، وهاتف ذكي آخر ما جادت به تكنولوجيا العصر.. لا شأن له بمرتبها الشهري، ولا بطريقة هندامها.. والتزامه الشامل بكل ما يأتي في وثيقة الشروط المرفقة مع عقد الزواج، ومن خلال الشروط تبين لـ«توفيق» أنه لن يتوفَّقَ في مشروع زواجه، وأن تلك الشروط التعجيزية لم تكن إلا رفضًا قاطعًا بطريقة لَبِقَةٍ، فأعرَضَ عن الزواج.. انتشر خبر فشل زواجه، فانهالت عليه عروض ومقترحات لنساء من شرائحَ

اجتماعية مختلفة، كان آخرها العرض الذي تقدم به صاحب المعصرة، إذ اقترح أخته الأرملة التي تربي ثلاثة أطفال، والتي لها نصيب ميراث في المعصرة والبيت.. جاء العرض متأخرًا كثيرًا بفعل السنين؛ فقد خمدت شمسه، وانطفأ قمره، وغاب الضياء عن سماه، ولم تعد له أي شهية للنساء، فقد عاف الزواج، وانغمس أكثر في العبادات، لكن بعيدًا عن الجماعات.

لا تَقَاعُدَ في الحبِّ

كانا يفتتحان صباحهما كل يوم بابتسامة تفاؤل وقُبْلة محبة، إيمانًا منهما أنْ «لا تقاعُدَ في الحبِّ!»

منذ أن أُحِيلت «ميلا» على التقاعد في وزارة الصحة ببلدها «هولندا»، وتقاعد زوجها «لوكاس» من مركزه السامي، توقَّفا عن القيام بأي نشاط مهني أو اجتماعي، لكن الحب الذي بينهما ظل يشتغل دون تقاعُد طوال هذه السنين، رغم عدم وجود ذرية لهما، تجمع وتربط ما بينهما.

بعد حالة التقاعُد والفراغ بشهور، قاما بجولة حول العالم في رحلة سياحية، فوقعا في عشق «المغرب».. اشتريا سكنًا على شكل «رياض» بمدينة «مراكش»، واتخذاه وطنًا ومستقرًّا لهما.

بعد الاستقرار بفترة، أُعْجِبا بالأذان لوجود مسجد قريب من سكنهما، وانبهرا بطقوس الصلاة والعبادة لخادمتهما «فاطمة الزهراء»

التي كانت ترافقهما كظلهما، فتعمقا في دراسة الدين الإسلامي، ثم اعتنقاه عن إعجاب وقناعة، وأصبح هو يحمل اسم «معاذ»، وتعلقت هي باسم «خديجة»، وانغمسا في أعمال البر والإحسان؛ يغدقان بلا حساب، ويجودان بكل سخاء.

في عيد زواجهما الواحد والستين، انحنى عليها زوجها «معاذ» بكل لطف وهي ممددة على سرير بالمستشفى، يخفي خلف ظهره باقة من الورود بداخلها خاتم من الألماس، يسألها مستفسرًا عن صحتها وعن الهدية، هدية العيدَيْن، فقد تقدم لخطبتها، طالبًا يدها للزواج على طريقتهما الأوروبية يوم عيد ميلادها، وأصرت أيام الخِطبة أن يكون زواجهما كذلك يوم عيد ميلادها، قال لها مبتسمًا: «أي الهدايا تتوقعين في العيدَيْنِ؟»

لم تجبه، لعلها تستوضح كلامه، واصل حديثه ومساحة ابتسامته تتسع أكثر:

أتريدين وردة حمراء لعيد ميلادك؟ أم باقة من الورود بعدد سنوات زواجنا؟ أم حديقة من الورود؟! أعلم أنك تعشقين الهدايا في المناسبات!»

ابتسمت وظلت تنظر إليه ولم تجب، بحماس كبير قال لها:

من أجل هذه الابتسامة على استعداد أن أضع ثروتي وكل ما أملك تحت قدميك، أتدرين لماذا؟ حين أصِبْتُ بداء السكري، كنتِ تقدمين لي القهوة بدون السكر وأنتِ تبتسمين، تجعلينها حلوة المذاق بابتسامتك، فكنتُ أستطعمها دون أن أشعر بمرارتها أو خُلُوّها من السكر، ولم أدرك ذلك إلا بعد أن استقر مستوى السكر في دمي، إذن، قولي أي الهدايا تنتظرين يا فاتِنَتي؟ وبأي العيدين نحتفل أوَّلًا؟ ولو كان العمر يُهدى لأهديتك عمري، وفوقه صحتي وحسناتي!

قالت له وهي تضع يدها المرتعشة على خده بحنان:

ليس الأمر بيدي ولا بيدك، لأني أريد سنة أخرى هدية من السماء، حتى نمضي معًا إلى العمرة ونطوف معًا بالبيت العتيق، بل أُطمع في مِنحةٍ بسنوات إضافية أقضيها معك وبجانبك، ولا نفترق فيها.. نتحدى فيها الموت، والشيخوخة والعجز والأدوية وكل الأمراض.

أيامي يا «معاذ» بدأت معك، مع أول نظرة لك، أول كلمة منك، وأول ابتسامة جمعتنا، ونحن طلبة في الكلية، ونحن نتدرج معًا في سلك

الوظيفة، ونحن ندخل في شراكة موثقة بعقد زواج.. أيامي انطلقت مع حبك، وعمري انطلق يوم أسلمنا وجهينا لله معًا مسلميْن.

لقد رأيت جمال الدنيا بعينيك يا «معاذ»، فأخشى أن يمضي أحدنا، حين يخسر المعركة ويتقهقر كجيش مهزوم، ويترك الآخر في دنياه وحيدًا، وما قيمة الدنيا لمفرد بلا ونيس؟ وما فائدة بقاء أحدنا في دنياه بلا توأم روحه؟!

أجابها مواسيًا، مشجعًا، ومخفيًا حسرَتَهُ بابتسامة شاحبة لا بريق فيها:

«كلانا يسكن في الآخَر.. قد تفنى القلوب، وتفنى الأجساد، لكن يبقى الحب مع الحياة للأبد.. حبنا سيتحدى الموت والزمان والمكان ويعيش بعدنا، كما تعيش القصائد الخالدة والوثائق التاريخية؛ لأن الحب الصادق أبدًا لا يشيخ، ولا يموت، ولا يتقاعَد!»

في بيتهما، رياض الفردوس، ظل «معاذ» يرعى «خديجة»، وظلت «فاطمة الزهراء» ترعاهما معًا، وظل الله يرعاهم جميعًا، وأقرب إليهم من حبل الوريد!

يَقْتَاتُ مِنْ بَقَايَا الْحُبِّ

«جواد» شاب مفرط في الجود، ومتطرف في الحب والدين وأشياء أخرى.. لا يعرف الاعتدال ولا الوسطية في حياته، ولا في مواقفه.. يبيح للأنثى كل شيء إلا أخته «سلوى»؛ خارج الحِسبة.. يساند الحريات الفردية والعلاقات الرضائية، مع أو بدون عوازل طبية، ما دام الأمر بعيدًا عن شرفه، وعن حجاب أخته، وعن أسرته المحافظة! هو مع التحرر والانطلاق، ومع الدين والتدين!

كانت له عادات غاية في الغرابة، ومن عاداته التي ألفها ساكنو الحي، رؤيته في ليلة رأس السنة سكرانَ مُترنحًا، إذ يظل يشرب في الحانة وخارجها، ويشرب في قلب الزقاق، وعلى أطراف الحي حتى الفجر، بل حتى يفقد حواسه والتحكم في خطوات رجليه، وتصل الثمالة إلى أقصاها... ورؤيته أيام رمضان ناسكًا متعبدًا، يصلي الفرائض في أوقاتها، ولا ينسى النوافل، أما في ليلة القدر، فيظل يبكي وينتحب خلف الإمام طيلة صلاة التراويح بصوت مدوٍّ حتى يزعج المصلين! ورؤيته في عيد

الأضحى فاعلًا جمعويًّا ومحسنًا فصيحَ اللسان، يطرق البيوت والأبواب لجمع التبرعات وشراء أكباش العيد للأرامل بحيِّهم، ويطلب من الأرامل فقط الدعاء له لينال ما في قلبه ويتحقق مراده، وفي باقي الأيام لا يَنْشَغِل إلا بأمرين، الحب والكرة، ولا هَمَّ له يُشْغَل حياته إلا العشق، عشقه لفريقه المفضل وعشقه لحبيبته «آمال».

كان فارسًا بلا فرس؛ إذْ كان كل فتيان الحي يعرفون قصة حبه لـ«آمال»، ومدى عشقه لها، وجنونه بها، والويل كل الويل لمن يقترب من أخته «سلوى»، أو يتحدث عنها؛ فهو تَعَوَّدَ في حياته أن يكيل بمكيالين، وأن يعيش بشخصيتين، بمنطق: «حلال علينا ما يروقنا، وحرام عليهم ما يزعجنا!»

كما تَعَوَّدَ، فورَ أن يحل بالحي بعد كل رحلة قصيرة رفقة الفريق، يسأل كل من يصادفه في طريقه من فتيان الحي عن حبيبته «آمال»، هل رأوها؟ متى خرجت؟ ماذا كانت تلبس؟ أين ذهبت؟ الكل يعرف قصتها إلا هي، الكل يتتبع حركاتها ويزوده بأخبارها وهي آخر مَنْ يعلم.

وفي عيد الحب يشتري وردة حمراء، ويلبس هنداما أحمرَ، ينتظر الأميرة التي لا تطيقه، ولا تطيق اللون الأحمر؛ إذ هي مع الطرف الآخر، مع اللون الأخضر ذوقًا ورياضة، هو خلف فريقه، وهي خلف دروسها.

كانت «آمال» مالكة قلبه، لا تهتم إلا بدراستها؛ فهي وحيدة والديها، مهذبة، لطيفة، تتكلم بصوت خافت، عكس صوته الجهوري.. ولا تختلط ببنات الجيران، وإنْ كانت تبتسم وتحييهن كلما التقتهن في الطريق.. جميلة الملامح والتقاسيم.. لا تراها أبدًا تطل من النافذة، أو واقفة بعتبة باب بيتهم، أو تتشاجر مع زميلاتها، كانت بلا صديقات؛ تذهب إلى المدرسة وحيدة، وتعود منفردة، لا ترفع رأسها في الطريق، ولا تلتفت خلفها.

كل ما تعرفه عن «جواد»، الذي لا تُطيق النظر إليه لتَسَيُّبَاته، وكل ما تُقِرُّهُ أنه زميل لها في الدراسة، وأحد شباب الحي؛ إذْ كان يجمعهما قسم واحد، وثانوية واحدة، وحب من طرف واحد! حب موقوف التنفيذ.. لم يجرؤ يومًا على اعتراض طريقها، أو القيام بإشارات تعبيرية تُجاهها؛ لا خوفًا منها، بل حبًّا فيها! يكتفي بالنظر إليها من بعيد، ويكفيه ذلك، ويتمنى لو كان ظِلَّها الذي يرافقها ويلازمها، صيفًا وشتاءً، ليلًا ونهارًا، كان يحبها حبًّا جارفًا بلا ضفاف، إلى درجة الفرح بنجاحها في البكالوريا والاحتفال بذلك، ولم يَبْكِ ويتحسر لرسوبه في البكالوريا للمرة الثانية على التوالي!

إلى أن صحا من غفلته ذات يوم وأبلغه الجميع، جميع الفتيان، أنّ «آمالَ» سافرت إلى «فرنسا» لمتابعة دراستها! وبقي هو على حاله، يجري خلف الفريق في الملاعب، ويسكر ليلة رأس السنة حتى الثمالة، ويبكي خلف الإمام في ليلة القدر حتى النحيب، ويشتري وردة حمراء في عيد الحب للذكرى والبكاء على الأطلال، والشيء الوحيد الذي جدّ في حياته في أثناء غيابها، أصبحت له «فَرَّاشَة» في «السوِيقة» يبيع فيها الأواني البلاستيكية في الأيام العادية!

"نَبِيلٌ" وحَمَاتُهُ

جلست «عتيقة» بين النسوة تتباهى بزوج ابنتها السخي والكريم، الذي يأتي دائمًا مُثْقلًا بالهدايا في سيارته الفارهة، من ملابسَ نسوية، وفواكه متنوعة، وحلويات على كل الأشكال.

و«عتيقة» هذه امرأة خمسينية، بيضاء البشرة، ضخمة الجثّة، نَمّامَة، مَنّانَة، تشكو وتهجو في أي مشكل، ولسانها بريء منها! لا تفك الخط، وتفك الطلاسم، ربة بيت بسلطة مطلقة، وأم لثلاثة أطفال شاركها الشارع في تربيتهم، تقيم في شقة بعمارة في السكن الاقتصادي الحديث.. أغلب جيرانها وافدون من المناطق العشوائية والأحياء الهامشية.

لذلك في كل مرة كانت تجلس بينهم، تطيل الحديث معهم، فقط لتتباهى بصهرها وهي تعدد مناقبه، مُسْهبة في الحديث عن المطاعم الغالية التي يأكل فيها، والمحالّ التجارية الراقية التي يشتري منها، والماركات العالمية التي لا يقتني غيرها، والسيارات المحببة إليه، وغيرها من

الأخبار والنوادر، حتى تجعل جاراتها يأكلن أنفسهن من شدة الغيظ والحسرة والحسد من هذا الحظ اللعين، فابنتها بالكاد تعرف القراءة والكتابة، ونصيبها من الجمال قليل، بل قليل جدًّا، وفوق كل هذا تفتقر إلى اللباقة وحسن التصرف، فكيف يبتسم لها الحظ، ويترك الجميلات من بناتهن وبنات الحي؟!

وحين تشعر «عتيقة» بأن الرسالة وصلت، والغيرة بدأت تعطي أُكلَها، تلجأ إلى كل وسائل الحرب من غمز ولمز وابتسامات كَيْدية؛ فهي متعودة على استعمال كل أدوات الإغراء، من ولائم للجارات، والهدايا للصديقات، حتى تظل هي السائدة بينهن.. أما لسانها فيتقاطر شهدًا وعسلًا عليهن كلما رأت نار الحسد تحرق في قلوبهن الأخْضَرَ واليابِسَ، والويل كل الويل لمن تغضب عليها «عتيقة»؛ فهي حين تغضب على إحدى الجارات، تراها تحرث الزقاق من أوله إلى آخره، ذهابًا وإيابًا، سبًّا وشتمًا في الجميع! والكل يتابع الأحداث من شقوق النوافذ وفجواتها في صمت مهيب ومريب؛ فقد كانت سليطة اللسان عند الغضب، ووقحة عند الانفعال، بكلمات نابية وساقطة تُطلقها في حق المغضوب عليها، كلام لا تستسيغه الأذن المحترمة أبدًا.

لم يكن «نبيل»، زوج ابنتها، يعيش في جلباب أبيه، بل كان يعيش في حِضن أمه؛ لأن أباه انفصل عن والدته وعمره لم يتجاوز ثلاث سنوات، لكن قفطان حماته كان أوسع وأرحب، فاحتواهم جميعًا.. وبعد الخطبة انتقلت الوصاية من والدته إلى حماته، التي تعودت أن تعطي الأوامر، وكلما أعطت أمرًا ذكّرتهم بأن برجَها برجُ الأسد، والأسد لا يقبل المساومة، ولا يعرف التنازل.

كل المقترحات التي تقدم بها «نبيلٌ» قُبَيْل الزواج، تغيّر مسارها بعد الخطوبة؛ اقترح أن يقيم حفل الزفاف في فندق ذي خمس نجوم، والحضور بدعوة مسبقة، أصرّت هي أن يُقام الحفل فوق سطح العمارة بين جيرانها وصديقاتها، وكان لها ذلك، فهي برج الأسد، واقترح هو أن يقضي شهر العسل في إحدى الدول الأوربية، لكنها أصرت أن يكون أقصى مكان يمكن الذهاب إليه هي مدينة «طنجة»، وفي الأخير تنازل عن اقتراحه في أن يسكن مع والدته وأخته في بيتهم العتيق، حين أصَرَّتْ أن تكون لابنتها شقة مُسْتَقِلة وقريبة منها في إحدى العمارات المجاورة لسكناها.

لم يكن «نبيل» يحمل من صفات النبلاء إلا الاسم، إذ تبين بعد الفضيحة أنه لم يكن نبيلًا ولا غنيًّا، ولم يولد وفي فمه ملعقة من ذهبٍ

كما كان يظن الجميع، بل كان مجرد سائق في شركة تستورد الملابس النسوية الجاهزة، ولأنه كان متفنِّنًا في السياقة، وله اهتمام كبير بالميكانيك وعالم السيارات، ترقى في سلم الشركة بسرعة، وأصبح مسؤولًا عن أسطول سيارات الشركة، وأصبح يجمع بين السياقة والاهتمام بصيانة السيارات، وأتاحت له هذه المهمة التواطؤ وتشكيل عصابة من رئيس المخازن، ومحاسب الشركة، والمسؤول عن الشحن والاستيراد، وحارس البوابة، للاستيلاء على جزء من البضاعة كلما دخلت إلى مخازن الشركة، إذ يتم التلاعب في الأوراق والوثائق لتسهيل عملية إخْفاء المسروق في ركن قصي بالمستودع.

كانت ثِقَة مُسْتخدمي الشركة ومَسْؤوليها في «نبيل» كبيرة جدًّا، لذلك تنقلاته وتحركاته في نقل البضاعة وتوزيعها لم تكن تثير الشك والريبة في تصرفاته، حيث ينقل المسروق بشكل عادي، ويوزعه على الدكاكين في الأحياء الشعبية التي لا تتطلب فاتورة استلام وتسليم، ثم يقسم المداخيل فيما بينهم حسب موقع كل واحد وأهميته، ويحصل هو من الغنيمة على نصيب الأسد، لذلك كانت السيولة النقدية متدفقة بين يديه.

كان «نبيل» يحب المظاهر ويعشقها، كلما كلفه أحد مديري الشركة أو أحد رؤساء مصالحها بإصلاح سيارته أو مراجعة صيانتها، تلك فرصة «نبيل»، يغتنمها جيدًا، ولا يتركها تضيع أبدًا، قبل الذهاب بالسيارة إلى مصلحة الصيانة، ينتقل بها إلى بيت حماته حاملًا معه هدايا، فكانت الساكنة من جيران حماته تظل مبهورة بهذه السيارات الفارهة المتعددة، في أوقات مختلفة، مع هدايا متنوعة، من ملابسَ نسوية، وفواكه شهية، وحلويات من كل الأشكال، ولا حديث لبنات العمارة والحي طول النهار إلا عن «نبيل» وسياراته وملابسه وهداياه.

ليلة القبض على «نبيل» عرف بيت حماته حركة غير عادية، وَشْوَشَة وهَمَسات، وصُعُود ونُزول عبر الدرج، وهواتف ترنّ، وهواتف لا تتوقف عن الرنين، وهَمْهَمات ودعوات، تعكس كلها مدى خوفهم على «نبيل»، لكنَّ «نبيلًا» بَدَا في محنته قويًّا وصُلبًّا؛ فهو لم يُقِرَّ ولم يعترف بالمنسوب إليه، رغم كل الأدلة والبراهين، التي قدمتها الشركة بعد عملية جرد شاملة لمخزون بضائعها، واعترافات المسؤول عن المخازن.

وفي المحكمة كان يَلْتَفت بين الفينة والأخرى إلى أُسْرَتِه مُبْتَسِمًا، وأحيانًا يقوم بإشارة النصر، ومع كل إشارة كانت تصيح «عتيقة»: «آجوادي واقفين معاك، اجوادي معاك ما تخافش»، إذْ كانت تملك

غرفة بضريح «سيدي عبد الرحمن» المحاذي لـ«عين الذئاب»، ورثته عن والدتها، وكانت تكتريه لإقامة ليالي الحضرة وجيلالة.

بعد صدور الحكم تبيّن أن أجواد حماته «عتيقة» لا سلطة لهم ولا سلطان على رجال الأمن ورجال القضاء؛ إذْ لم يتمكنوا من تغيير مجريات الأحداث وتحويل مسار القضية.

"ميريام" و "كورونا" المغربية

قرر الشيخ «امبارك» بعد مرور أسبوعين على أخذه الحقنة الثانية المضادة لفيروس «كورونا» المستجد، زيارة ابنه بمدينة «الدار البيضاء»، بعد غياب دام عدة سنوات.

بشوقه الكبير لابنه الوحيد، وضع يده على جرس الباب، بعد عدة رنات فُتِحَ الباب، فاستقبلته امرأة، وسألته بلغة غريبة استنتج من ملابسها أنها خادمة، ومن ملامحها أنها غير مغربية، إذ وجد صعوبة في التواصل معها.. تكلمت طويلًا ثم أغلقت الباب.

تشاءم كثيرًا سي «امبارك» من هذا الاستقبال.. ظل ينتظر لحظات وكأنها ساعات، وقبل أن يقرر ماذا يفعل، ظهر ابنه مبتسمًا، فاتحا الباب وذراعيه على مصراعيهما، بعد عناق بالأحضان، قبَّل يده وقاده إلى قاعة الضيوف.

فربح ابنه «عبد الغني» بزيارته، لكن زوجته «ميريام» استقبلته بفتور شديد، قال سي «امبارك» لولده متسائلًا بعد أن لَمَّحَتْ زوجته بكلمات جارحة عن الزيارة في الظروف الراهنة، وهي تغادر الصالة:

كيف تتحمل زوجتك يا ولدي؟ إنها عصبية جدًّا، وتفتقر إلى اللباقة.

أجابه ابنه «عبد الغني» دون تردد:

بالحبِّ يا أبي، من الصعب أن تتحمل امرأةً عصبية إلا إذا كنت تحبها، ولولا حبي لها، وإعجابي بشخصيتها، ما سار مركبنا كل هذه السنين.

قاطعه والده قائلًا:

بل قل بالصبر، وربما «قَلَّتْ لَعْقَلْ»، أيُّ حبٍّ هذا الذي يجعلك مستسلمًا لجبروتها؟! من لم يهد عَقْلُهُ قَلْبَهُ، فَقَدْ ضلَّ الطريقَ!

انقطع الحديث بينهما، عند دخول الزوجة رفقة ابنيها «إلْياس»، و«صوفيا»، وعطرها الفرنسي الساحر في المقدمة يغزو المكان، تتبختر في مشيتها، واثقة من أنوثتها، وتتكلم بدلال وبإيقاع موسيقي، وكأنها أميرة من العصور الوسطى، وخلفها الخادمة تجر عربة صغيرة جدًّا، تحتوي على كؤوس الشاي وقطع من الحلوى.

ظل يداعب حفيديه بتحفظ كبير، تحسُّبًا لأي انتقاد من طرف كَنَّتِهِ «ميريَام»، فجأة وصلت إلى مسامعهم زغاريد من قلب الشارع، وشرعوا في الضحك، فصاح الطفل «إِلْياس»:

لقد جاءت «كورونا»، بكّرت اليوم في المجيء.

صاح العجوز:

هل عندكم «كورونا» تزغرد وهي قادمة؟!

ضحك الجميع من ملاحظته، واستدرك «عبد الغني» الموقف قائلًا لوالده:

إنها فتاة مصابة بالجنون، لا أحد يعرفها، ظهرت بالمنطقة في الأيام الأولى من ظهور «كورونا»، فسموها «كورونا».. تعلن عن قدومها بالزغاريد، وتطرق الأبواب طلبًا للطعام، ثم تختفي.

صباحًا لم يكن سي «امبارك» راضيًا عن زوجة ابنه وهو يراها تتزين وتتعطر بملابسَ عصرية لتلحق بعملها، وقد اعتاد في عُرْفِهِ الذي تربى عليه أن الزوجة لا تتزين إلا لزوجها.. ظل يستغفر ربه في سره، وأحيانًا يغمض عينيه، مخاطبًا نفسه:

«إنها جميلة وتتجمّل أكثر كأنها تصر على فتنة الآخرين، كان عليها أن تحجز زينتها في غرفة نومها، بدل أن تنظر إلى المرآة بين الفينة والأخرى، وتعدل من تبرجها في حضورنا!»

خرج لحظة خروج الزوجين للعمل والطفلين للمدرسة، وبقاء الخادمة وحدها، على أمل العودة ساعة رجوعهم.

زار سي «امبارك» بعض معارفه، بمدينة «الدار البيضاء» التي لم يزرها منذ وفاة زوجته، حيث اعتاد هو وزوجته على زيارة ابنهما الوحيد ومعارفهما، كل ثلاث سنوات تقريبًا.

«عبد الغني» لم يكن غنيًّا، لكنه يعيش عيشة الأغنياء.. تحمل المشاقَّ في طلب العلم والمعرفة.. ورغبة في متابعة دراسته، انتقل من مدرسة ابتدائية بقريته النائية إلى الإعدادية بـ«ورزازات»، فالثانوية بـ«مراكش»، ثم الأقسام التحضيرية بـ«الدار البيضاء»، وأخيرًا المدرسة المحمدية بـ«الرباط» التي تخرّج فيها مهندسًا، وتزوج بزميلة له مهندسة تنتمي لعائلة مفرنسة! وعاشا على الطريقة الأوروبية في المعيشة والحياة، وحَوَّلا بيتهما إلى متحف بتزيين جدرانه وزواياه بتحف فنية ولوحات زيتية. متحف «مِيرْيام» من الصعب أن يدخل إليه أحد من أفراد عائلة «عبد الغني» أو يمكث فيه أكثر من بضع دقائق.

مدام «مِيرْيام» شمالية المولد والنشأة، من أبٍ مغربي، وأمٍّ فرنسية.. آية من آيات الله في الجمال؛ قَدٌّ معتدل، قِوام متناسق، شعر أشقر، عيون خُضر، بشرة ناعمة.. حين تبتسم، جاذبية ابتسامتها تفوق جاذبية الأرض، تجعل «عبد الغني» يدور في مدار فلكها دون توقف.

لا تهتم كثيرًا بعادات «المغرب»، ولا تتقيد بطقوسه.. أيام عيد الأضحى تقضيها في أحد فنادق «طنجة» أو «أكادير»، وأحيانًا تسافر إلى فرنسا.. مولعة بالسفر والسياحة، وتعشق التجوال بين المتاجر في العواصم، وتحب الاستمتاع بمباهج الحياة في بذخ مبالغ فيه.

جلس سي «امبارك» بجانب حارس السيارات يدردش معه في انتظار عودة ابنه وزوجته، من خلال الدردشة معه، عرف أن الخادمة التي تشتغل في بيت ابنه مستوردة من «الفليبين»، وهي ظاهرة أصبح يلجأ إليها الأثرياء وعشاق المظاهر، وحين سأله مستغربًا:

وهل «المغرب» أصبح يفتقر إلى اليد العاملة من الخادمات؟

أجابه موضحًا:

خوفًا من تسريب أخبار أو معلومات عنهم، يفضلون الأجنبية، ويقولون إن الخادمة المغربية علبة سوداء، تسرب كل أسرار البيت

وأخباره إلى الجيران والغرباء، لذلك يختارون خادمة أجنبية لا تتكلم إلا اللغة الإنجليزية، حتى لا تجتمع بالجيران أو تختلط بالمغاربة.

استمر الحديث بينهما إلى أن سمعا الزغاريد، فالتفت سي «امبارك» مستغربًا، قال الحارس مبتسمًا:

ها قد حلت «كورونا» بيننا، (رافعًا صوته) إنها تظهر وتختفي مثل الهلال!

اقتربتْ منهما فتاة طويلة، نحيلة، سمراء، تميل سمرتها إلى سواد، بملابسَ محتشمة، متسخة، وخلف تلك الملابس نصيب ضئيل من الجمال، بنظرات حادة، وتعابير وجه لا تخضع للسيطرة العصبية، وشفتين مكتظتين حجمًا وشكلًا، وشعر قصير مجعد غير مصفف، وعمر يتراوح بين العشرين والثلاثين، تتكلم بكلمات متقاطعة تتخللها الزغاريد، وجمل غير مترابطة، تدور حول استعدادها للعرس، وزواجها بسيدها صاحب الفيلا المطلة على البحر، وفي جمل أخرى عن تعرضها للاغتصاب من طرف ابنه، بتحريض من والدته، ليقطع الطريق على الحاج حتى لا يتزوج بها، وفي جمل أخرى عن هروبها المتواصل، هروبها من جسدها، من ذاتها، من واقعها، وفي جمل متفرقة عن مكوثها في الضريح وتعرضها للتحرش، وعن إقامتها في المقبرة وتعرضها للاغتصاب، وعن استغلالها

في البيوت، وعن ابتزازها في الشوارع، حكايات بجمل لا أول لها ولا آخر!

ظل سي «امبارك» يستمع لها ويتأمل في وجهها؛ فلهجتهما واحدة، وملامح وجهها مألوفة لديه، لكن لا يدري أين رآها قبل ذلك.

وهم بصالة الضيوف يتناولون العشاء، كان الحديث يدور بين «عبد الغني» وزوجته أغلبه باللغة الفرنسية، لكن سي «امبارك» ظل صامتًا، وباله مشغول، فجأة وقف صارخًا:

«ميمونة»، إنها «ميمونة» بنت الحاج الروحي، الفتاة التي تنادونها «كورونا»، اسمها «ميمونة» ابنة قريتي، جاءت إلى المدينة عن طريق أحد السماسرة لتشتغل خادمة في إحدى الفيلات ثم اختفت، وقد مضى على اختفائها أكثر من أربع سنوات!

ظل يحكي لهم عن «ميمونة» اليتيمة التي غادرت مقاعد الدراسة بالقسم السادس بعد وفاة والدها، وخروجها لسوق الشغل، وكيف اشتغلت عند عائلة غنية بالبيضاء لسنوات طويلة إلى أن اختفت.

اتصل سي «امبارك» عبر الهاتف بأهلها وبمعارفه، وفي الصباح انطلق الجميع يبحث عن «كورونا»، ولم يعثروا عليها، مسحوا الحي والأحياء المجاورة إلى أن وجدوها في ركن منزوٍ بمنزل آيل للسقوط.

عرضوها على أطباء بالمستشفى العمومي، وأقاموا لها محضرًا بمديرية الأمن، واتفقوا على أن يتابع حالتها المرضية طبيب نفساني بمدينتها.

عند قدوم المساء، وقفت «ميريام» ببهو بيتها وهي ترى سي «امبارك» يقود حشدًا من الملأ يدخلون بيتها، متحفها، محرابها، كظمت غيظها على مضض، التقت عَيْنا «مريام» بِعينَيْ «كورونا»، وشتان ما بينهما؛ «مِيرْيام» من «المغرب» النافع.. عرفت الرفاهية منذ نعومة أظفارها، وطلباتنا أوامر، و«ميمونة» من «المغرب» غير النافع، عرفت الفقر منذ ولادتها، تنفذ طلبات الآخرين وأوامرهم لتعيش تحت رحمتهم، لذلك كلتاهما لم ترتح للأخرى، زغردت «كورونا» ثلاث مرات، ابتسمت، ضحكت، قهقهت، ثم سألت «ميريام» بنوع من السخرية:

هل بإمكاني أن أقبّلَكِ، وأضمَّكِ إلى صدري؟ لا تخافي لن ألتهمكِ، فقط أدعوك إلى عرسي الذي سيُقام خلال هذا الأسبوع.

لم تجب «ميريام»، بل وجهت خطابها إلى زوجها «عبد الغني» قائلة:

متى تنتهي هذه الحفلة؟ نريد أن نرتاح، نحن متعبون من العمل.

الذين يفهمون اللغة الفرنسية نظر بعضهم إلى بعض باستغراب، ثم وقفوا، فجاء رد «عبد الغني» سريعًا، لأول مرة لا يدور في مدار فلكها، ويتكلم معها بلهجة مغربية صارمة:

هؤلاء ضيوفنا الليلة، سيبيتون عندنا، وفي الصباح سأنقلهم بسيارتي إلى البلدة، لكن الحاج الراقي أقسم بأغلظ الأيمان ألا يبيت هؤلاء الضيوف إلا في منزله، وقد أبلغ أهل بيته بتجهيز وجبة العشاء، وهم الآن في الانتظار.. وقفوا جميعًا، وبدأ انسحاب الضيوف الواحد تلو الآخر.. لم يرافقهم «عبد الغني» إلى الباب، بل إلى حيث يذهبون أمام أنظار «مريام» التي اعتبرت «كورونا» عدوة لها.. «كورونا» الحقيقية أفسدت حياتها خارج البيت، و«كورونا» المغربية أفسدت حياتها داخل البيت!

لَيْلَةُ هُرُوبِ "عَبْدِ الْعَالِي"

مات «ولد الرحمونية» في حادثة سير، رغم أنه لا يملك سيارة، ولا دراجة نارية أو هوائية، فقط قدميه اللتين كانتا جزءًا من رأسمالِه التجاري، إذ يطوف بهما على المقاهي وهو يستعرض بضاعته، فهو منذ طفولته بائع متجول، الكل يعرفه وينادِيه بـ«ولد الرحمونية»، ولا أحد يتداول اسمه أو كنيته.

لم يترك عند وفاته إلا ولدًا ذا تسع سنين، اسمه «عبد العالي»، وابنة اسمها «فاتحة»، عمرها لا يتجاوز أربع سنوات، وزوجة شابّةً ربةَ بيت، في منزل كِراء غير مكتمل البناء بِحَيٍّ عشوائي.. مرّت سنة ومِنْحَة التأمين لم يُفْرَجْ عنها، لأن طرق شركة التأمين القضائية ملتوية، وطريق الإجراءات طويل.

ذات صباح أخذت الأرملة بيد ولدها «عبد العالي»، لم تذهب به إلى المدرسة، بل إلى محل لإصلاح السيارات بحيهم العشوائي، وسلمته إلى

رب المحل «احْميدة» الميكانيكي، وطلبت منه أن يعلمه الميكانيك ثم انصرفت.

وفي الورشة حاول التكيف مع وضعه الجديد الذي لا تربطه أي علاقة بالمدرسة.. في المدرسة كان يَتَعَلَّمُ ويُعَبِّرُ ويَتَكَلَّمُ، وحقوقه محفوظة.. أما هُنَا فلا حَقَّ له، وعليه أن يرى بلا تَكَلُّمٍ! وأن يسْمَعَ بلا تَدَخُّلٍ! وأن يشْتَغِلَ بلا حَدِيثٍ! وقد تَعَوَّدَ الصمت حتى أصبح الصمت يلازمه كَظِلِّهِ! ظل يشتغل في صمت، وبعد بِضْعة شهور بدأ يجْني ثِمارَ صَمْتِهِ.. كانت زوجة صاحب المحل تغدق عليه بسخاء، وهي أول رشوة يتلقاها في حياته، كلما أحضر لها احتياجاتها من السوق بأمر من «احْميدة»؛ تعطيه مالًا وطعامًا وكُسْوَةً، لا لأنه يتيم، ولكن لأنها كانت على علاقة مع أحد المشتغلين في الورشة، وهي تعلم أنه يعلم، وأنه كتم السر ولم يتكلم، ولا أحد في هذا الزمان يظل صامتًا بلا مقابل.. هكذا كانت تفكّر، كما أصبح زوجها «احْميدة» الميكانيكي يغدق عليه العطايا بغير حساب، لأنّه يخون زوجته مع بعض نساء الحي، وحين علم «عبد العالي» ظل صامتًا ولم يتكلم، وأمسى شاهدًا ولم يتحدث، ولمعلم «احْميدة» يعلم أن «عبد العالي» أصبح يعرف عن أسراره العاطفية أكثر ما يعرف عن أسرار المهنة؛ لذلك يشتري صمته بالعطف والعطاء.

وفي كل مساء بعد صلاة المغرب يُخَصَّصُ المحل لممارسة القمار وتدخين المخدرات رفقة حرفيين زملاء «احْميدة» وأصدقائه بالحي.. كل الأحداث التي تتناهى إلى علم «عبد العالي» من خلال تلك الأمسيات والأقوال التي يسمعها في أثناء دردشتهم تمضي مسرعة إلى أذنيه، وترسخ في ذاكرته، وهو صامت لا يتكلم، تَعَوَّدَ أن يعمل في صمت ويتابع في صمت، لكن في البيت يصعب عليه النوم وهو يخزن تلك المعلومات أو يرتبها لفهم الأحداث.

ما كان يثير استغرابه أكثر هو حضور مقدم الحومة كل يوم ثلاثاء صباحًا، ويجلس على مقعد بباب المحل، ثم تأتي امرأة عجوز وتزوده بمجموعة من الأخبار، يُدَوِّنُ بَعْضَها في كُناشِهِ، تسرد عليه كل ما يجري في الحي، حتى ما يقع في حمام النساء الشعبي، ثم ترحل بعد انتهاء مهمتها القذرة، ويظل هو يتابع كل التحركات المريبة، وقبل مغادرته يأخذ المعلوم، وهو قدر مالي أسبوعي، مقابل السماح للمعلم «احْميدة» بممارسة القمار بالمحل ليلًا.

اعتاد لمعلم «احْميدة» أن يمنع «عبد العالي» من الذهاب إلى منزله إلا بعد صلاة العشاء بساعة أو ساعتين، أحياناً وليس دائمًا، مع الوقت وتكرار العملية اشتم الصبي رائحة «إنّ» في القضية! خصوصًا مكوثه في

المحل أحيانًا يكون بلا معنى وبلا عمل وبلا ضرورة.. ظل يرتب الأحداث والوقائع في صمت، وفي الأخير قرّر أن يسبح ضد التيار ويخالف الأوامر إن طُلِبَ منه ذلك في قادم الأيام.. تَعَوّدَ رفاق السوء من الحرفيين حين يجتمعون أن يتناقلوا أخبار الحي، ويتبادلوا أسرار أفراده، ولا ينجو منهم إلا القليل، حتى فقيه الحي لم ينج من سلاطة ألسنتهم! أغلب الكلمات والمصطلحات لا يفهمها «عبد العالي» لِصِغَرِ سِنِّهِ، لكن بحدسه يدرك أنها سيئة المعنى وفعلها شائن.. في كل مساء، وبدردشة الحرفيين، كان الحي يتعرى ويتعرى أمامه، حتى لم تعد تستر عورته أي خِرقة!

وذات مساء طلب منه لمعلم «احْميدة» أن لا يغادر المحل، وأن يمكث فيه حتى يأذن له بالمغادرة، لكن القرار الذي اتخذه «عبد العالي» لم يَغِبْ عن ذهنه؛ بعد صلاة العشاء، انسلّ دون أن يشعر به أحد، وانطلق يركض بسرعة قصوى، يسابق نفسه ويسابق الزمن، ظل يجري ويجري دون توقف، حتى وصل إلى بيتهم، ظل يطرق الباب بقوة طرقات قوية بيديه ومتتابعة برجليه، لم يجبه أحد، أعاد الكرة للمرة الثانية، لكن بقوة أكبر، حتى أرْعبت كل سامعي تلك الطرقات، فتحت له أخته «فاتحة» الباب، ورأسها مطأطأ خجلًا، سألها عن أمه، أشارت بيدها إلى غرفتها، والباب مغلق، وقبل أن يطرق باب الغرفة، خرجت أمه وهي في حالة

غضب وهيجان وشعرها أشعث ومنتوف وملابسها مبعثرة وفي عينيها رغبة متوهجة، يَتَطَايَرُ مِنْهُمَا شَرَرٌ نَارُهُ مُتَّقِدَة، دون مقدمات انهالت عليه بالضرب بكل قوتها، ولسانها لا يتوقف عن السب والشتم، تمكن من الانفلات منها بِصُعوبة، وَفَرَّ هاربًا...

لَيْلَتَهَا لم يَعُدْ إلى البيت، ولم يَعُدْ إلى المحل، وقضى ليلة ليست ككل الليالي، ومنعطفًا لم يكن في الحسبان.. ظل يتسكع في الشوارع ويطوف في الأزقة، والليل يتمدد في ساحته، وفي وقته يطول، والشارع يفتح ذراعيه أكثر وأكثر، إلى أن احتضنه وأصبح مأوى له، وتَعَرَّفَ على جماعة من المتشردين، واندس بينهم، وعاش معهم، ثم أصبح فردًا منهم، وعنصرًا أساسيًّا في المجموعة.

وحين أبلغه أحد العابرين أنه رأى صورته ونداء والدته في برنامج «مختفون»، لم يندهش، ولكن ابتسم ابتسامة ماكرة، وبدأ يتفلسف والعَقْلُ شِبْهُ مُغَيَّبٍ، قائلًا:

هناك صُوَرٌ لا تُنْسَى، وذِكْرَيَاتٌ لا تُمْحَى، تحول بيني وبين العودة.. قصة عودتي تشبه قصة شاب أراد أن يشتغل حطابًا، فحمل فأسًا وذهب إلى الغابة، وظل يجمع الحطب طول النهار، وفي المساء حين أراد العودة، تاه عن الطريق، وظل يبحث ويبحث بلا جدوى.

وفي الأخير قرر العيش في الغابة! وهي من القصص التي قرأت في المدرسة وأنا تلميذ.. آه، ما أحلى تلك الأيام! أيام الدراسة، ودفء الأسرة.

حَرَمُ "عَبْدِ الرَّحْمَنِ"

ما أقسى الحياة على رجل متقاعد حين ترحل زوجته بَغْتَة، وتلحق بالرفيق الأعلى بشكل مُفاجِئٍ، وتتركه وحيدًا، بلا سند ولا أنيس، بين براثن الوحدة، والشيخوخة، وجدران البيت الصامتة!

لم يكن لـ«عبد الرحمن» إخوة ولا أقارب، فقط صديقًا الطفولة: «الهاشمي»، و«عثمان»، وثلاثة أبناء ذكور بعد تخرجهم من المعاهد العليا بـ«المغرب» هاجروا تِباعًا إلى «فرنسا» لمتابعة الدراسة، ثم استقروا هناك بعد وفاة والدتهم...

ما عاد «عبد الرحمن» يستقر في مكان، وما عاد يشعر بالاستقرار والأمان منذ وفاة زوجته «حليمة»، أصبح دائم الترحال إلى مدن «المغرب» السياحية، خصوصًا الأماكن التي يكثر فيها الضجيج والهرج، مثل: مولاي إبراهيم، مولاي يعقوب، جامع الفناء، هروبًا من الوحدة والعزلة، ومن حُجُرات بيته التي تذكره برفيقة دربه، ومن كل التفاصيل اليومية الصغيرة.. وحين يشتد عليه الشعور بالضجر، ينتقل إلى الضفة

الأخرى عند أبنائه، ويُكْثِر من التنقل بين مدن «فرنسا»، لكن الإحساس بالوحدة يظل يرافقه أينما ذهب.. وقبيل عيد المولد النبوي، ورغبة منه في التخلص من هذا الإحساس الذي أصبح يلازمه، قرر السفر إلى «السعودية» لأداء العمرة، وطلب من صديقيْ الطفولة أن يرافقاه إلى المطار وأن يستقبلاه عند العودة.. ظل يتّصل بهما بين الفينة والأخرى عبر «الواتس آب»، ويُطلعهما على تحركاته، وأخباره، وتاريخ عودته، وهو يلتقط صورًا للأماكن المقدسة.

وفي مطار محمد الخامس وهم ينتظرون رفقة جاره «علال» الذي أَقَلَّهُما بِسيارته، كانت هناك العديد من الأسر المغربية كلما سمعوا بوصول طائرة من إحدى دول الخليج، هَبُّوا جميعًا نحو البوابة، وما كان يُثير الاستغراب أكثر أنّ أغلب هذه الأسر، آباء وأمهات وإخوة وأخوات، جميعهم يتحركون دفعة واحدة، وفي اتجاه واحد، نحو البوابة.

أمام البوابة كل الأُسَر واقفة في تدافع وتزاحم ينتظرون، والشوق في عيونهم، والفرحة بادية على وجوههم، وكل فرد مستعد لجر حقيبة من الحقائب، وما أكثر حقائب الوافدين من دول الخليج! اشتغل الكل كخلية نحل بجر الحقائب، ورفاق «عبد الرحمن» يتابعون هذه المشاهد متفرجين، مع تلميحات –طبعًا– وتعليقات، تبدأ بالضحكات، وتُخْتَم

بالقهقهات، لم يُوقِفْها إلا صوت حريمي يعلن عن وصول الطائرة القادمة من «المملكة العربية السعودية».. انطلقوا نحو البوّابة وكل منهم يُمَنِّي النفس بهدية أو هدايا، من صديقهم الميسور.

وهم يتفحصون في الوجوه القادمة من الأرض المقدسة، طلع عليهم رجل يجر عربتين محملتين بالحقائب، ولوحة مكتوب عليها «عبد الرحمن الرافضي، المدير المتقاعد بالقرض الفلاحي»، اقتربوا من الرجل مستفسرين، عرّفهم بنفسه، وقال لهم: كنت وصاحبكم أكثر من ساعة ننتظر دورنا في طابور المطار ونحن نتبادل أطراف الحديث، حدثني عنكم، وعن حياته، وعن الوحدة القاتلة التي تلازمه، وفجأة أحسّ بدوار، وسقط مغمًى عليه، فنقله رجال أمن المطار إلى المستشفى، وخوفًا من ضياع أمتعته، حَمَلْتُهَا معي إليكم، فنظر «الهاشمي» إلى «علال» وقد بدا وجهه شاحبًا، أما عثمان احتار في أمره، وبقي صامتًا جامدًا في مكانه.. أصبح فكرهم مشلولًا عن آخره، لا يعرفون عن أي خطوة سيُقْدمون.

ظلوا يطوفون مكتوفِي الأيدي، عاجزين، ما بين المطار والسفارة ووزارة الخارجية، يطوفون في حلقة مفرغة، إذ يقضون اليوم في الذهاب والإياب بين الوزارات، وفي الصعود والنزول إلى المكاتب، وفي الطواف

بين المصالح، ولم يكن ينقصهم إلا ملابس الإحرام، ومع ذلك لم يحققوا أي نتيجة، إلى أنْ تمكّن أحد أبنائه في «فرنسا» من معرفة المستشفى الذي يرقد فيه صديقهم «عبد الرحمن»، وهو مستشفى الحرم للطوارئ، وبعث لهم برقم هاتف المستشفى.

مرّت ثلاثة أيام لم يذق فيها الأصدقاء الثلاثة طعم النوم، ولم يعرفوا فيها الراحة ولا الاستراحة.. وفي كل مرة يبلغهم المستشفى أنه ما زال في غرفة الإنعاش، إلى أن اتصلت بهم سيدة يبدو من لهجتها أنها سورية أو لبنانية، تقول لهم: «الأستاذ «عَبْدُ الرحمن» تَمَاثَلَ من أزمته القلبية، ويستطيع الآن الحديث معكم، «بِلِيزْ» لا تكثروا عليه الكلام والأسئلة».. بصوت خافت وكلمات متقطعة أخبرهم: أنه أصبح بخير، والحمد لله، وقد مدّوا له الإقامة عشرة أيام خاصة بفترة النقاهة، سيقضيها في الفندق بعد خروجه من المستشفى، تحت رعاية ممرضة تابعة للمستشفى وعنايتها.

وبعد أسبوع يخبرهم عبر «الواتساب» أنه يتعذر عليه الحضور في الوقت المحدد، بسبب الإجراءات الإدارية، وبعض الفحوصات الطبية، ولهذا سيسافر إلى «لبنان» لإتمام ذلك، ثم انقطعت أخباره.

ذات مساء توصل «الهاشمي» بمكالمة من «عبد الرحمن» يدعوه فيها إلى بيته بعد ساعة، ونبّه عليه أن يحضر معه «علال» و«عثمان» وأمتعته التي تسلموها في المطار، لأنه وصل صباح اليوم إلى «المغرب».. استقبلهم رفقة امرأة، وقدمها لهم، «ميريام»، زوجتي من «لبنان»، مدلكة، متخصصة في التمريض والترويض الطبي، (مبتسمًا)، وهي الممرضة التي كانت ترعاني في المستشفى وفي الفندق وفي «لبنان».. رحّبت بهم «ميريام» بطريقتها وبلهجتها.

«ميريام» مواطنة لبنانية من شمال «لبنان»، هكذا عَرَّفَتْ بِنَفْسِها، وهي تُسَلِّم عليهم، أمام انبهارهم بجمالها ورِقتها ونُعومتها.. تَسَمَّرُوا في أماكنهم مصدومين.. ظلت أفواههم مفتوحة على مصراعيها من هول المفاجأة؛ فقد كانت جميلة جدًّا، وأنيقة جدًّا، وجذّابة جدًّا، تجذب العين والعقل والتفكير؛ بشرتها بيضاء كقطعة جبن طري، وعطرها قوي ومتميز جدًّا، أمّا قوامها بدا محسوبًا بالقياس والمسطرة، حتى إنهم لم يستطيعوا تحديد سنها أو تصنيفها إن كانت صغيرة أو كبيرة، لأنّ عمليات التجميل طمست كل الملامح ومعالم وجهها الحقيقية.. بصوت عذب ورخيم كانت تناديه: «عبدُ الرحمن». لأوّل مرّة سيكتشفون عذوبة اسمه وهي تناديه: «عبدُ الرحمن»، بالضمة على الدال في كل الأحوال، كانوا

يسرقون النظر بالتمعن فيهما، ويختمون ذلك همسًا بتعليقات فيما بينهم كلما سنحت لهم الفرصة!

قال «عثمان» هامسًا: لقد صام سي «عبد الرحمن» ثلاث سنوات، صام ثم صام، وأفطر بطبق لباني.. زكّى «علال» كلام «عثمان» صائحًا: واللهِ، لقد كان صيامه مقبولًا، ودعوته مستجابة؛ مثل هذه تحتاج إلى صيام الدهر، وقيام الليل عدة ليال.. تساءل عثمان: السؤال الذي يحيرني، هل تزوج بها «عبد الرحمن» عن حبٍّ أم ردًّا للجميل؟ وهل هي تزوجته عن حب أم من باب الشفقة؟ قاطعه «الهاشمي» –وهو أكبرهم سنًّا–: الزواج لا يُبْنَى على الشفقة، إما أن يكون بدافع الحب، وإما يكون من أجل المصلحة، لكن السؤال الحقيقي الذي يشغل بالي، كيف تقبل شابة يافعة برجل تجاوز الستين؟ نسي «علال» نفسه وصرخ بصوت مرتفع: ومن قال لك –انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ خَفّضَ صوته– ومَنْ قال لك إنها شابة؟! انظر إلى يديها! لعلها تجاوزت الخمسين!

بِمُنْتَهَى اللّباقة والرّقَّة تقدم لهم الحلويات، وبِدَلاَلٍ وتَغَنُّجٍ تبلغهم أنهما اتفقا هي و«عبد الرحمن» على الاستقرار في «فرنسا» بعد تصفية بعض الأشغال.. أومأ «عبدُ الرحمن» برأسه لتأكيد أقوالها..

وتبقى الكلمة الأولى والأخيرة لـ«ميريام» حرم «عبدُ الرحمن» التي استطاعت قتل الإحساس بالوحدة الذي كان يلازمه، وملأت ذلك الفراغ المهول الذي كان يعاني منه مدة تزيد على ثلاث سنوات، وجعلت قلبه ينبض من جديد.

"عِيشَة"، و"عَيْشَة"، وَ"عْوِيشَة"!

لم تكن «عائشة» راضية عن عيْشها، ولا سعيدة في حياتها؛ لا لأن البعض يناديها «عَيْشَة» أو «عِيشَة»، ولكن لأنها تعيش من أجل العيش ومُرْغمة على ذلك؛ فهي يتيمة الأم، توفت والدتها في أثناء الوضع، وتركتها تتنقل بين الأيادي والوجوه، وكان آخر وجه تعرفت عليه هو وجه زوجة أبيها. سماها والدها «عائشة»، ولكنَّ البعضَ يناديها «عَيْشَة»، والآخرين «عِيشَة»، اعتقادًا منهم أنها قتلت أمها لتعيش هي! خصوصًا وزوجة أبيها لم تنجبْ أبدًا.

كانت «عائشة» صبية جميلة رغم هزالة جسمها، ومليحة رغم بنيتها الضعيفة، طويلة القامة، شاحبة اللون، تعاني من فقر الدم في قرية نائية، لا شيء متوفر فيها غير الفقر، تحب اللون الأبيض لبياض سريرتها، لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها حين انتزعوها من ساحة اللعب بفناء البيت انتزاعًا، وبعد عملية استحمام سريعة، ألبسوها لباسًا أبيضَ، وأضافوا إليه بعض الحُليّ، ولأنها تحب اللون الأبيض راقتْها اللّعْبة،

فلعِبْتها معهم، ثم اركبوها دابة والنساء حولها يزغردن وينشرن حبات الأرز واللوز على الوافدين والمشاركين.

عرجوا بها عدة منعرجات في مسالك القرية، وأخيرًا أدخلوها بيتًا غير بيتها الذي تربّت فيه، بعد ثوانٍ قُرِئَت الفاتحة بحضور فقيه القرية، وفي دقائق رُتِّبَتْ طقوس الزواج، وفي ساعات بين مواويلَ ورقصاتِ أحواش، انتهت اللعبة، لتجد نفسها وحيدة في مواجهة رجل أربعيني بغرفة موحشة لغرابة أثاثها، ومضاءة بعدة قناديل وشموع.

اقترب منها وفي عيونه رغبة جامحة، ولُعاب فمه يسيل، وأنفاسه متدافعة بين زفير ونفير، كمن يلتهم فريسة بعد جوع كبير، اقترب أكثر وعيناه جاحظتان لا تستقران على مكان في جسدها النحيل، صعودًا ونزولًا، نهمًا وافتراسًا، مدّ يده، مانعتْ وامتنعتْ، ثم مدّ يدَيْه كِلتَيْهِما، ازدادت ممانعة وامتناعًا، لم يكن صبورًا، ولم تكن خبيرة، ضمّها بقوة إلى صدره صفعته لوقاحته، انهال عليها بالضرب والرفس وتمزيق الملابس التي تحتمي بها، حين بلغ صراخها إلى باقي البيوت، تأكد ساكنوه أن «موحا» رجل فحل ويُعْتَمَدُ عليه في المواقف الصعبة.

في تلك الليلة سرق منها «موحا» البراءة والطفولة، وانتزع منها ملكية الجسد ونبل المشاعر وصدق الرغبات، حين أخذ منها ما أخذ

بالقـوة والغَصْـب، مُسـببًا لهـا ألمًـا في الجسـد وشـرخًا في الـروح، حـتى أصبحت تشمئزُّ وتتقزز منه كلما اقترب منها يريد حقوقه الزوجية، تلك اللحظات الحميمية، سواء كانت ثوانيَ أو دقائقَ أو ساعاتٍ، كانت تمر عليها دهرًا بطوله وعرضه، بعد انتهائه من تلك العملية المُقرِفَة بالنسبة لها، تتسلل بهدوء من الفراش والاختناق يكاد يقتلها، والدموع سجينة مقلتيها، ساعتها تتمنى لو تتخلص من جِلْدِها، من جسدها، من ذاتها، من دنياها، أو أن تكون بلا جسد ليعيش بعيدًا عنها.

تعرضت لعملية الإجهاض الأولى وهي بين الحقول تجمع أكوامًا من الحطب وتستعد لنقلها إلى البيت، وفي المرة الثانية كانت بين النساء قرب العين تحمل جرّة ماء ككل النساء، أحسّت بمغص، ثم بقطرات من الدم تتساقط بين رجليها، وفي كل إجهاض كانت تتعرض للضرب والرفس والشتم فوق الألم الذي تعانيه.

لكن في المرة الثالثة كانت حريصة ومنتبهة، ليس حُبًّا في الإنجاب، ولكن خوفًا من الدم والضرب والإهانات. أصبحت أكثر فِطنة وذكاء في التعامل مع الأشياء رغبة منها في الحفاظ على الحمل، وبصعوبة كبيرة مرت الأمور بسلام، وأنجبتْ بِنتًا، كل الحاضرات أكّدْن لها أنها تشبهها إلى حدٍّ بعيد.. حين بدأت الفرحة والسعادة تَدُّبان في جسد «عائشة»،

والابتسامة تعلو محياها، دخل «موحا» يسبّ ويشتم، لأنه كان يريد صبيًّا يعتمد عليه ويساعده في شؤون الفلاحة والرعي.

المولودة الجديدة التي سماها «موحا» «إيناسَ» لم تكن في وضعية مريحة، كثيرة الصراخ والبكاء في الليل والنهار، يبدو أنها تعاني من صعوبات صحية، هكذا كانت تردد «عائشة» لتبرير بكائها، و«موحا» لا يكف عن السب والشتم كلما أزعجه صراخها، فقط «عائشة» هي التي تدفع الثمن، إذْ انقلبت حياتها رأسًا على عقب، وأصبحت تسهر الليل في رعاية ابنتها «إيناس» وتنام نهارًا بقربها، لم تعد تقوم بأشغال البيت، ولا عادت تجمع الحطب وتجلب الماء، ولا أصبحت تغسل الأواني وملابس «موحا» المترامية في كل أطراف البيت.

أصبحت منهوكة جسديًّا، ومرهقة عصبيًّا، ومتعبة على الدوام، والخطوط السوداء لا تغادر أسفل عينيها، وكل اهتمامها منحصر في العناية بـ«إيناس»، والتفكير في التبول اللاإرادي الذي أصبحت تعاني منه؛ في كل مرة تُغَيّرُ ملابسها، تجدها مُبَلّلة، تستغرب! ما عادت تتحكم في مثانتها؛ فور أن تعمل أيَّ عمل يدوي أو شغل منزلي، يتسرب البول إلى ملابسها دون أن تحس بذلك! بدأت الروائح تصل إلى أنف «موحا» الذي ما عاد يدخل إلى غرفتها إلا لمامًا.

«إيناس» لم تعمر طويلًا، لأن «عائشة» أمٌّ قاصر تفتقر إلى الخبرة في التربية والأمومة، بل كيف تكون «عائشة» أُمًّا مِثالية وهي في حاجة إلى أُمٍّ تعتني بها؟! و«إيناس» تعاني أمراضًا أو صعوباتٍ صحيةً، ولم تُعْرَضْ على أي طبيب، لأنّه لا يوجد في قريتهم مستشفى ولا مستوصف ولا طرق معبدة.

يوم ماتت «إيناس» لم ينزعج «موحا» كثيرًا، ولم تتوقف «عائشة» عن البكاء، لكن جاراتها توقفن عن زيارتها بسبب الروائح الكريهة المنبعثة من ملابسها.

اعتزلت «عائشة» النساء مُكْرَهة، واعتزلت النساء «عائشة» طواعية، أما «موحا» ظل يتابع الشائعات عن علاقة «عائشة» بالتبول والروائح، ويفكر في زوجة جديدة، وظلت «عائشة» تَتَدَحْرَجُ مُتَقَهْقِرَةً في رُتَبِ المواطنة والإنسانية من «عائشة»، إلى «عَيْشَة»، إلى «عِيشَة» ليستقرّ الاسم في نهاية المطاف على «عْوِيشة»: (عْوِيشَة البُوّالة)!

ذات صباح ساقها «موحا» هي وملابسها إلى بيت والدها، وهي في حالة مُزْرِية؛ شعرها منتوف وملابسها متسخة وروائحها كريهة، وعند باب البيت نادى بأعلى صوته على والدها، حتى يسمع كل سكان الدوار: «وا الطاهر»، «وا الطاهر»، خذ ابتنك؛ لم تعد صالحة لا

للزواج ولا للإنجاب، «عويشة البوَّالة» بضاعة منتهية الصلاحية، ومُضِرّة بالصحة؛ فهي «طالق»، «طالق»، «طالق»، ثم انصرف إلى حال سبيله.

زوجة الطاهر لم يرقها ما فعل «موحا» ابن أخيها، أو هكذا تظاهرت أمام زوجها، جلس «الطاهر» يندب حظ ابنته، وجلست زوجته تفكر في كيفية التخلص من هذه المصيبة، وفي الأخير هداها تفكيرها إلى ركن منزوٍ في الزريبة هو الأنسب لهذه الحالة!

وعاشت «عائشة» في الزريبة لا ترى أحدًا ولا يراها أحد، وكلما أحضرت زوجة الأب العلف للبهائم، أحضرت معها طعامًا لـ«عائشة»، تلتهمه في صمت، ولا تحدث بلبلة ولا ضجيجًا ولا اعتراضًا، مستسلمة لقدرها بشكل غريب.

قُبَيْل جني الزيتون حلّت بالقرية ولأوّل مرّة قافلة طبية متعددة الاختصاصات، حج إليها الجميع من كل حدب وصوب، فور أن علموا أنَّ العلاج والأدوية بالمجان، وفي منتصف النهار أحضر فقيه القرية الطعام للضيوف، وأبلغ أعضاء القافلة أن هناك فتاةً تعاني مرضًا نفسيًّا وعقليًّا تعيش بالزريبة مع البهائم منذ سبع سنوات، فوجئوا بالخبر! وكانت صدمتهم كبيرة.. تركوا الطعام ومركز العلاج وانطلقوا يقودهم

فقيه القرية إلى بيت «عائشة»، حين طرقوا الباب عدة طرقات قوية ومتتالية لم يجبهم أحد، إلى أن التحق بهم «الطاهر» وزوجته والمقدم.

فتح «الطاهر» الباب بالمفتاح ،وقادتهم زوجته إلى الزريبة، بصعوبة قاوم أعضاء القافلة الروائح الكريهة باستعمال أياديهم، واضعين أذرعهم على أنوفهم، مستعينين بالعطور المنبعثة من ملابسهم، وفي الأخير أخرجوها إلى فناء المنزل، وهناك عاينوها وفحصوها، وسألوها وكلّموها، فضرب كبيرهم غاضبًا كفًّا بكفٍّ، وقال لفقيه القرية: مرضها بسيط جدًّا؛ إنه التَبَوُّل اللاإرادي، ويُسمى طبيًّا «السلس البولي»، مشكل يقع على مستوى الجهاز البولي والتناسلي، يصيب بعض النساء بعد الولادة، حين تتعرض عضلات فتحة الشرج والمهبل والمثانة إلى الارتخاء بسبب الثقل الذي يتعرض له البطن في أثناء الحمل، مع الجهد المبذول في أثناء الولادة، خصوصًا إذا كانت المرأة الحامل ضعيفة البنية وعديمة الخبرة، مثل: «عائشة».. أنجبت بلا مُوَلِّدَة كما تقول، وتعاني من سوء التغذية وفقر الدم، كما يظهر عليها، فقط تفاقَم وضعها بسبب الإهمال وعدم العناية والوقاية.

مرضها بسيط، وعلاجها كذلك بسيط، وبسيط جدًّا؛ قليل من الأدوية وبعض الحصص من الترويض الطبي لتقوية العضلات المحيطة

بالمهبل، وتعود «عائشة» كما كانت سابقًا تتحكم في مثانتها ككل الناس، وكما ترونها تتمتع بكامل قواها العقلية، فهي تجيب عن كل الأسئلة التي طرحناها عليها بشكل عادي وطبيعي، رغم الظروف المزرية التي تعيش فيها! قاطعه فقيه القرية قائلًا: واللهِ العلم نور ونور ونور، نحن فقط الذين نعاني الجهل، ونعيش في ظلام الجهل بهذه القرية المنسية.

أجرى أعضاء القافلة الطبية عدة اتصالات عبر جهاز اللاسلكي، لأن شبكة الاتصالات منعدمة في تلك المنطقة، وأبلغوا المقدم ووالدها «الطاهر» بفحوى المكالمات، وأنّه بعد غد ستأتي سيارة الإسعاف لنقل «عائشة» إلى المستشفى، ونبهوا والدها إلى أن يضعها في مكان لائق، وبملابس نظيفة، والاستحمام كل أربع ساعات، مع التقليل من شرب السوائل، والباقي سيتكفلون به.

في المستشفى كانت «عائشة» تتابع بعينيها كل ما يجري في القاعة، ساكنة في فراشها، بدون حركة ولا كلام.. بعد أسبوع بدأت تثق في الأطباء وهي تَتَمَاثَلُ، وخلال الأسبوع الثاني انطلقت في نسج علاقات مع المرضى، وكانت هي المريضة الوحيدة التي لا يزورها أحد، ورغم ذلك بدأت تستعيد ثقتها بنفسها، وتُقْبِلُ على الحياة بتفاؤل، وقبل نهاية الشهر أبلغها الطبيب أنها شُفِيَتْ، وأصبحت ككل النساء، ويمكنها

مغادرة المستشفى غدًا، وسألها: هل كانت ستعود إلى القرية؟ وهل تحتاج إلى مساعدة؟ نزل عليها الخبر كالصاعقة، تَرَجّتْه وتَوَسّلَتْ إليه أنْ يتركها في المستشفى مقابل أي عمل من أعمال التنظيف؛ هي لا تريد الخروج من المستشفى، ولا تريد العودة إلى القرية.. تأسف لها وأبلغها أن قانون المستشفى لا يسمح بذلك وانصرف.

تعاطف معها الطبيب، وظل يبحث لها في تلك الليلة عن عمل عبر الهاتف في بعض المصحات الخاصة التي يوجد فيها معارفه، وفي الغد أبلغته الممرضة حين استفسر عن «عائشة» وهو يحمل لها خبرًا سارًّا، أن «عائشة» رحلت مع إحدى المريضات إلى مدينة «أكادير» لتشتغل هناك في مصنع لتعليب السردين! لقد ودّعتنا المسكينة فردًا فردًا، وتركتْ لكَ سلامًا حارًّا، ودعوات طيبة.. أما سكان القرية فلم يحسوا بغيابها، ولم يعلموا بمكان وجودها، وليس لديهم أي خبر عنها منذ رحيلها في سيارة الإسعاف.

هل يا ترى عائشة التي ابتلعتْها مدينة «أكادير» ما زالت تحتفظ باسمها الذي رافقها وكان سببًا في محنتها أم غَيّرتْهُ؟!

الْغِشُّ بِأَدَوَاتِ التَّجْمِيلِ!

اعتاد أن يزور خالته بين الفينة والأخرى، خصوصًا في المناسبات الدينية، لكن حين شاهد فتاة أحلامه بحيّ خالته في إحدى المناسبات، أصبح يكرر الزيارات أسبوعيًّا على أمل مشاهدتها.

ظنت خالته وابنتها «نادية» أنَّ زياراتِ «سمير» لهما للتودد والتقرب منهما تمهيدًا للخِطبة والمصاهرة، استغل «سمير» هذه الزيارات للتعرف أكثر على فتاة أحلامه، ولجمع أكبر عدد من المعلومات عنها رغبة في الزواج منها، ومن المعلومات عرف أنَّ اسمها «ابتسام».

أحبها من أول نظرة.. أُعجب بشعرها الأشقر، وبعينيها الخضراوين، وببشرتها البيضاء، وبشفتيها وخديها شديدي الاحمرار، وبقوامها الزائد قليلًا عن الممشوق، الشهي عند النظر، والمثير للجدل، وأناقتها الباهرة رغم سكنها بحيٍّ شعبيٍّ! كمن شاهد وردة حمراء صغيرة فريدة ومنفردة قد بزغت بين الصخور!

ذات يوم فاتح «سمير» خالته في أمر «ابتسام»، ورغبته في الزواج بها، وطلب منها أن تكلف ابنتها «نادية» للتوسط له عندها.. صفع الخالة والابنة دون أن يدري، وسبب لهما إحباطًا غير متوقع، ومع ذلك كتما حسرتهما، وسايراه حتى لا تفسدا عليه فرحته.

زودهما بكل المعلومات التي جمعها عن فتاته التي تقيم في حيِّهما، ولا يبعد منزلها عن بيتهما إلا بزقاقين، وحدد لهما مكان البيت.

«ابتسام» من عائلة فقيرة بحي شعبي، تبلغ من العمر خمسة وعشرين ربيعًا، تملك قناة في اليوتيوب اسمها «ابتسام بنت العسكري».

تسهم كثيرًا في مصروف البيت، منذ تقاعد والدها الجندي في القوات المسلحة الملكية.. لم يمض وقت طويل على فسخها لخطوبتها من شاب كان قد تقدم لها، إذ كان يطمع فقط في مدخول قناتها، ويريد أن يعيش على حسابها بدعوى اشتغاله معها في القناة.

هذه هي كل المعلومات التي جمعتها «نادية» ابنة خالته، وأضافت أنها فاتحت «ابتسام» في موضوع الزواج، فطلبت مهلة للتفكير.

لم يمض إلا شهر واحد حتى كان يطرق بابها رفقة أمه وخالته وابنتها ونفر من أسرته، يحمل في يده باقة ورد كعادة كل الخطاب، أحس

«سمير» وهو ينظر إليها أنه أسعد رجل في الدنيا، فتحمس في الحديث، وانطلق يعرفهم بنفسه؛ أنه موظف بالمحافظة العقارية للأملاك، يملك شقة وسيارة، وسنه تسع وعشرون سنة، لم يسبق له الزواج، ويؤمن بالاستقلال المادي للزوجة.

في جو مليء بالبهجة والسرور تم الاتفاق على كل شيء، بما في ذلك المهر وتاريخ العرس ومكانه وباقي التفاصيل، واشترط عليه والدها ألّا تخرج معه للتنزه أو للفسحة والتشاور إلا بعد عقد القران.

مرت كل الأمور بسلاسة وتفاهم تام، وبعد عقد القران كثرت الزيارات، سواء لأسرته أو لشقته قصد معاينة الأثاث وما تحتوي عليه، والإدلاء بملاحظاتها في كل ما يلزم البيت من أثاث، وعن طريقتها في تأثيث الشقة، والديكور الذي تراه ملائمًا.

ذات يوم اتصلت به، طلبت منه وبإلحاح أن تلتقيه في مقهى الزهور بقلب المدينة لمناقشة بعض الأمور الخاصة بهما، وذلك قبل العرس بثلاثة أيام.

في المقهى كان «سمير» سعيدًا، وكانت «ابتسام» مرتبكة، لاحظ ذلك، فحاول أن يشجعها بخلق جو مرح حتى تتخلص من توترها في أول لقاء عاطفي يجمع بينهما معًا بعيدًا عن جو الأسرة.

وهي تضغط على أصابع يديها بتوتر وعصبية، سألته: هل هو يحبها؟ وهل يحبها لشخصها أم لذاتها؟!

أكثرت من الأسئلة حتى نفذ صبره، فطلب منها بمنتهى الصراحة أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة، خفضت رأسها، وقلبه ينبض بقوة توجسًا مما تريد قوله، ثم رفعته قائلة:

ترددت كثيرًا قبل أن أتشجع في اتخاذ هذا القرار، وتحديد هذا اللقاء، لأفاتحك بسرٍّ يخصني، كي تعرفني على حقيقتي، ازدادت ضربات قلبه وهو يستمع لها، تابعت حديثها:

أنت تعرف أنني صاحبة قناة، ويجب أن أظهر على الدوام بصورة جميلة ومثيرة، لذلك عليك أن تعرف أن شعري في الأصل أسود وهو مصبوغ بالأصفر، والرموش مركبة لا أملك منها إلا المظهر، حاجباي مرسومان، كما ترى، عيناي عسليتان وأضع عدسات خضر لتتلاءم مع الشكل، كما أضع (اصنايل) لأسناني كي أزداد جمالًا، وثِقة بالنفس.

ابتسم بامتعاض من تصريحاتها، واعتبر أفعالها عادية قائلًا لها:

كل البنات تستعين بأدوات التجميل، وأساليب التجمل تلك... واصلت كلامها حين شجعها بابتسامته وبكلامه المساند لها على الاسترسال في الحديث:

هذا الصدر ليس صدري، فقط حمّالتان محشوتان بالقطن و(البونج)، لأني أملك ثديين صغيرين جدًّا، وهذه المؤخرة التي أحمل ليست لي، هي سراويل جينز مزودة بمؤخرة مناسبة لطولي، اشتريتها ككل الفتيات، فأنا نحيفة الجسم وهذا شيء يضايقني، فاضطررت إلى استعمال هذه الوسائل التجميلية، لم أستعن بأطباء التجميل إلا مرة واحدة لتعديل أنفي.

لم تكن على الإطلاق تتوقع خروجه عن طوره ومخاطبتها بنبرة صوت حادة، وملامح متجهمة دون الاكتراث بمن حوله من الناس، متهمًا إياها بالنصب في الشكل، والغش بأدوات التجميل، والاحتيال عليه وعلى غيره؛ لأن رغبته في الزواج منها كان بناء على معطيات وانطباعات عن ذاتها، عن قوامها، عن جمالها عن شكلها العام، متسائلًا عن الصورة التي يحمل في مخيلته الآن، كيف يمحوها ويضع مكانها صورة جديدة لامرأة نحيفة لا تملك من قوام الصورة القديمة أي شيء؟!

حمل مفاتيح سيارته وهاتفه، وخلع خاتم الزواج من أصبعه ووضعه بعنف على المائدة، وخرج مسرعًا دون أن يلتفت إليها، أو يودعها أو يدفع ثمن مشروبات المقهى، أمام ذهول «ابتسام» وانزعاج زبائن المقهى وهم يتابعون الحوار، ظل وجه «ابتسام» متشنجًا، والدموع تنهمر من عينيها في صمت، والعرق يتصبب من جبينها، ويبلل ثيابها الأنيقة. أما لون وجهها أصبح يميل للون الأزرق شحوبًا من شدة الصدمة، لأنها أحبته، وبَنَتْ أحلامًا وردية معه، وحياة عائلية في دنياه.

كان ضمن زبائن المقهى فضولي، تعرّف على (اليوتيوبر) «ابتسام» منذ دخولها إلى المقهى رفقة «سمير»، وظل يتابعهما بهاتفه ويسجل حواراتهما صوتًا وصورة، رغبة منه في فضحها وتدميرها، أو طلبًا للتسلية.

مساء ذلك اليوم، ظهر الفيديو في اليوتيوب، فانتشر بسرعة محققًا نسبة مشاهدة عالية، منتقلًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، لكن السحر انقلب على الساحر؛ لأن الفيديو كما أحدث ضجة، حقَّق لها شهرة كبيرة، فازداد عدد المساندين لها والمتعاطفين معها، فتحولوا إلى متابعين لها في قناتها، فَعَلَتْ نسبة المشاهدة لديها في القناة.

اضطرت اليوتيوبر «ابتسام» إلى الخروج للعلن في المباشر معتذرة، وفي فيديو آخر مبررة، وفي فيديو ثالث موضحة، تارة تضحك، وتارة تبكي وهي تحكي، والهدايا والمساعدات تتهاطل عليها من كل حدب وصوب، والمشاركات تزداد في تصاعد مذهل، والمشاهدات تحقق مداخيل تُعد بالملايين.

بدت الفرصة مواتية لـ«نادية» ابنة خالته كي تصطاد في الماء العكر، وكان لها ذلك، إذ تحولت من وسيط بين عروسين إلى زوجة «سمير»، بعد انتهاء إجراءات الطلاق.

حققت «ابتسام» شهرة لم تكن تحلم بها، وأصبحت ضيفة في عدة قنوات، كما حققت «نادية» حلمها بزواجها من «سمير»، لكن الوحيد الذي خرج من هذه التجربة خاوي الوفاض هو «سمير»؛ في لحظة غضب تبخرت أحلامه، وتركت له خيبة أمل، ليجد نفسَه سجينًا في قفص ذهبي، دخله دون حبٍّ إلى أجل غير مُسمًّى.

في لحظة غضب تتغير حياته من أسعد رجل مع الفتاة التي يعشق، إلى أتعس زوج مع امرأة يقدرها، لكن لا يشعر نحوها بأي حب، وستزداد تعاسته يومًا بعد يوم طوال مكوثه في ذلك القفص.

أصبح «سمير» يجلس بمقهى الزهور (مسرح الجريمة) كل مساء في ركن منزوٍ، يتابع المارة بعينيه في صمت، لعله يبحث في وجوههم عن حب حياته الذي ضاع، ضاع في لحظة غضب.

البابّ المدني

لما أعلنت المدارس فتح أبوابها لاستقبال التلاميذ لموسم دراسي جديد، استيقظتُ باكرًا على غير عادتي، تأنقت في هندامي وتناولت فطوري، ثم غادرت بيتي.

لم أنس أني متقاعِد، وأن مهمتي في التعليم انتهت، لكنني تصرفت، كأني ما زلت على العهد القديم.

التقيت على قارعة الطريق صديقي «أحمد العيساوي»، وهو جندي متقاعد، تعرفت عليه حديثًا، يرافق حفيده إلى المدرسة في أول أيام الدراسة، فرافقتهما ونحن نتبادل أطراف الحديث عن الدراسة قديمًا.

بباب المدرسة وقفنا ننتظر دخول الأطفال إلى الأقسام وهم بساحة المؤسسة يجتمعون، راقنا المنظر وذكّرنا بأيام طفولتنا، والأطفال يصطفون في صفوف متراصة تحت إشراف الأساتذة.. الأطفال الجدد يقلدون

المتعلمين القدماء، كفراشات تتراقص حول أزهار العلم والمعرفة، وحولهم الأساتذة ومدير المؤسسة.

الكل يتابع المشهد، إلى أن انطلق الأطفال في ترديد النشيد الوطني، هنا انتفض «العيساوي» من مكانه، عند سماعه النشيد الوطني كمن لسعته عقرب، تقدم خطوتين بسرعة فائقة، وقدم التحية للعلم، وظلَّ شامخًا في مكانه إلى نهاية النشيد الوطني واستقرار العلم مرفرفًا في الأعالي.

هذه الصورة، صورة صديقي «العيساوي» وهو يؤدي تحية العلم رغم تقاعده من الجندية منذ أكثر من عشرين سنة، جعلتني أستعيد ذكرى ظلت راسخة في ذهني منذ كنت في العشرين من عمري.

تعود الذكرى إلى سنة 1979؛ كنت حينئذ حديث الالتحاق بالتعليم بمدينة «طانطان»، وفي أُولى خطوات مشواري المهني.

ومن الأمور التي تَعَوّدْناها في ذلك الوقت رؤية جندي متقاعد طوال أيام الدراسة، يجلس قبالة المؤسسة، يبيع للأطفال في أثناء خروجهم حلويات متنوعة من أقراص حلاوى، وحلويات، واللبّة، والعلكة، وغيرها من الأشياء التي يعشقها الأطفال في ذلك الوقت.. يلتفون حول

بضاعته بين شارٍ ومتفرج ومتابع، والابتسامة تعلو محياه وهم ينادونه: «البا المدني، البا المدني».

كان شيخًا بشوشًا كثير الكلام، قليل الحركة، ضعيف البنية، يلقي التحية ولا ينتظر الجواب، يراقب بضاعته، ويتواصل مع الأطفال، وفي الوقت نفسه يتابع ما يجري بساحة المدرسة، حيث يتجمع التلاميذ في صفوف أمام العَلَم لترديد النشيد الوطني، عند نهاية كل أسبوع وبدايته.

كنت ألاحظ هذا الجندي المتقاعد، كلما انطلق النشيد الوطني ترك بضاعته وهي كل ما يملك، وهرول نحونا مسرعًا تاركًا خلفه بضاعته، يتجاوز باب المدرسة بثلاث خطوات، ويقدم التحية للعلم، ويظل شامخًا، ومنتصب القامة، وجامدًا في مكانه إلى نهاية النشيد، ثم يعود إلى بضاعته، وأحيانا يترك بضاعته وحولها الأطفال، وهي بضاعة مغرية على كل حال للأطفال، ومع ذلك لا يفكر فيها إلا بعد نهاية النشيد.. يتفقد بضاعته، ورأسماله الزهيد الذي لا يختلف كثيرًا عن راتب تقاعده الهزيل، ذلك المعاش الذي ترتب عنه وضع هش، ظل يعيشه ويعاني منه، ويتجلى ذلك بوضوح في هيئته وهندامه.

خلال ثلاث سنوات لم ألحظ تخلفه عن تحية العلم ولو مرة واحدة، وكان لا يهتم ببضاعته في أثناء ترديد النشيد الوطني؛ إذْ كان يعتبر تقديم

التحية للعَلم في أثناء ترديد المتعلمين للنشيد الوطني من أَولى أولوياته، لذلك لم يتخلف.

في السنة الرابعة، لم يظهر له أثر، وترك فراغًا في المشهد الذي تعودنا عليه كل يومي السبت مساءً والاثنين صباحًا.

وحين سألت عنه اكتشفت أن كل التلاميذ يعرفون تفاصيل حياته إلا أنا، أحسست بالحزن وبالتقصير في حق رجل.. ظل يحب وطنه دون مقابل إلى آخر رمق في حياته، وللتأكد من صحة المعلومات سألت حارس المدرسة الذي كان يعرف كل كبيرة وصغيرة بمحيط المؤسسة، ومن خلاله عرفت أنَّ «البّا المدني» جندي متقاعد من أصول «سيدي افني».. حين أحالوه على التقاعد، وهو بمدينة «طانطان» ظل بها رفقة زوجته، حيث كانا يقيمان في بيت قديم (حوش) نصفه مهدم، تنازل له عنه سكان الحي مقابل أن يقوم بحراسة الحي ليلًا.. لم ينجبا أطفالًا؛ لعل أحدهما كان عاقرًا أو كليهما عقيمًا! لكنهما كانا يحبان أطفال الحي، ويجودان عليهما بكل ما يملكان من حبٍّ وحنانٍ واهتمامٍ.

كان «البّا المدني» لا يثق في أحد إلا في زوجته «طامو»، ولا يتكل في شؤونه إلا على زوجته «طامو».. كانت مصدر قوته، ومركز اهتمامه، وكاتمة أسراره.. جمع بينهما الحب والفقر والغربة، لم يفترقا يومًا، ولم

يختلفا لحظة، ولم يسمع أحد شجارًا أو خصامًا نشب بينهما؛ كانا سعيدين رغم بؤسهما.. الابتسامة والحمد لم يفارقا شفتيهما يومًا.

ذات صباح لم تستيقظ «طامو» كعادتها، ناداها بعد عودته من حراسته الليلية، ولم تجب، اقترب منها، حرّكها بكل قوة لم تتجاوب معه، أدرك أنها خانته، وتخلت عنه، ورحلت بمفردها إلى الرفيق الأعلى دون أن تستأذنه في الرحيل دون أن تبلغه بقرارها، وهما اللذان اعتادا فعل كل شيء معًا.. أكثر ما آلمه أنها رحلت دون أن يطلب منها الصفح إن أساء لها يومًا، رحلت في صمت، وتركته صامتًا مذهولًا، وكل ما بداخله ينهار.

بعد إجراءات الدفن والعزاء، اعتزل الناس، وتوقف عن الحراسة الليلية، وأصبح لا يخرج من المنزل إلا لشراء حاجياته، إلى أن خرجت روائح كريهة من كل الثقوب والمنافذ في منزله.

حين انتشرت الروائح، حلت السلطات المحلية بعين المكان، واقتحموا المنزل، فوجئوا بجثة «البا المدني» متحللة، وقد مضى على وفاته على أقل تقدير ثلاثة أيام، كما صرح بذلك الطبيب الذي عاين الجثة.

لم يستغرق الفراق أكثر من شهرين؛ توفيت «طامو» في أوائل شهر يوليوز، وتوفي بعدها بشهر «البا المدني» في أواخر شهر غشت خلال العطلة الصيفية.

كان «البا المدني» يحب وطنه، وكان يعتبر حب الوطن يبدأ من النشيد الوطني، وتحية العلم، لكن الوطن لم يكن يعلم بوجوده، ولم يقدر له حبه، ولا خدماته، وتركه يرحل في صمت.

المُحتَوياتْ

الإهداء 6

الْأُمُومَةُ فِي الْخَفَاءِ 7

رِسَالَةٌ صَوْتِيَّةٌ 11

عريس من أوروبا.................................. 15

الملّالي يا الملّالي.................................. 19

المخزني جلّول 23

حين يُلْغى العقل..... 30
"جميلة» والمظاهر..... 38
الحاجّ "ما زار» 46
هَمْهَمَة قاتلة..... 50
"نانسي» والصورة 55
حالة ارتياب..... 66
فرحة "عماد» لا تكتمل 75
ميراث من سراب..... 83
"توفيق» وغربة الذات 89
لا تَقَاعُدَ في الحبِّ..... 94
يَقْتَاتُ مِنْ بَقَايَا الْحُبِّ 98
"نَبِيلٌ» وحَمَاتُهُ.....102
"ميريام» و "كورونا» المغربية 108
لَيْلَةُ هُرُوبِ "عَبْدِ الْعَالِي».....117
حَرَمُ "عَبْدِ الرَّحْمَنِ» 123

"عِيشَة»، و"عَيْشَة»، وَ"عْوِيشَة»!..... 130
الْغِشُّ بِأَدَوَاتِ التَّجْمِيلِ! 139
البَّا المدني 147

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هذا العمل الإبداعي برعاية دار بسمة للنشر الإلكتروني

بشراكة مع جروب ملتقى الأقلام المُبدعة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لدار بسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

نور الدين النبهاني

مجموعة قصصية

يقتات من بقايا الحب

كل نص من نصوص هذه المجموعة القصصية .. فيه جزء من ذاكرتي .. من ذكرياتي .. من تجاربي .. من تطلعاتي .. وأحيانا تجد جزءا من مشاعري مبعثرة هنا وهناك مع هذه الشخصية أو تلك.

فشخصيات هذه القصص حقيقية .. عاشت بيننا على أمل .. وعانت مثلنا من الحرمان .. ثم رحلت عنا في صمت.

أحداث هذه القصص في منطقة رمادية تجمع بين الحقيقة والخيال .. بعضها عشته أو عايشته عن قرب .. والباقي سمعت عنه من المحيطين بي .. وقعت لأشخاص عبروا جسورنا بلا ضجيج ..

آمنوا بالحب ولم يدركوه ..

فعاشوا محرومين..

قاوموا الشر ولم يغلبوه ..

فمكثوا منهزمين ..

راهنوا على الحظ وحين لم يحالفهم .. رحلوا في صمت.

من إصداراته:

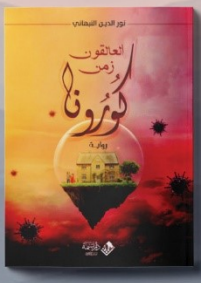

contact@darbasma.net
Bassmabook
www.darbasma.net
00212771814934
دار البسمة للنشر الإلكتروني